الباب الثانى

مظاهر الشقاء الدنيوية والأخروية

obeikandl.com

مظـــــاهر[١] الشقاء الدنيوية والأخروية

تمهيد

لقد انتهينا- فى الباب السابق- من بيان الأسباب الرئيسية المؤدية إلى الشقاء، وفى هـذا الباب نستظهر - بعون الله تعالى - مظاهر الشقاء ومآل الأشقياء فى الدنيا والآخرة وفى بيـان ذلك نقول:

أنه تحللت فينا جوانب العزة، وذهبت عنا عوامل القوة واستولت علينا الأهواء، وتمكنت فينا عوامل الفساد واستغرقنا فى اللذات وملنا إلى الشهوات ، وتكاثرت فينا المعاصى وتمادينا فى الضلال، وظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس، وقد كان للقرآن الكريم السبق فى الكشف عن هذه الحقيقة قال تعالى ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْـدِي النَّـاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾[٢]

"وظهور الفساد كالجدب وكثرة الحرق والغرق ومحق البركـات وكثـرة المضـار أو الضلالة والظلم ،﴿ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ ﴾ بشـؤم معاصيهم أو بكسبهم إيـاها ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ أى بعض جزائه فإن إتمامه فى الآخرة ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ عما كانوا عليه"[٣].

وتؤكد الآية الكريمة أن الإنسان سيدفع ثمن ما خَرَّبت يداه وما صنع مـن إفسـاد فـى الأرض التى جعلها الله صالحة له، وجعله مستخلفاً فيها لعماراتها لا لتدميرها أو إفسادها .

لقد أساء استخدام البيئة، ولم تتورع البشرية عن جنونها فى إفساد نعمة عظيمة سـخرها الله تعالى لبنى الإنسان، وامتد هذا الإفساد ليشمل البر والبحر والجو، ويكفينـا بعـض الأمثلـة الصارخة التى تدلل على حقيقة الإفساد فمثلاً: التفجيرات النووية فى بـاطن الأرض والبحـار وتأثيراتها الضارة، والغازات السامة التى تملأ الجو بسبب الصناعات البتروكميائية، وأثر ذلـك

---

[١] تعريف المظهر:

جاء في المفردات: "ظَهَرَ الشيء أصله أن يحصل شيء على ظهر الأرض فلا يخفي، وبطن إذا حصل فـي بطنان الأرض، فيخفي ثم صار مستعملاً في كل بارز مبصر بالبصر والبصيرة، قال تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ "سورة الروم الآية ٧" أي يعلمون الأمور الدنيوية دون الآخرويـة" المفـردات ص٣١٨، "فالمظهر: الصورة التى يبدو عليها الشيء، والجمع مظاهر "المعجم الوسيط ٥٩٩/٢.

[٢] سورة الروم الآية ٤١

[٣] تفسير أبى السعود ٦٢/٧ بتصرف

على طبقة الأوزون، وكذلك الأسمدة الملوثة والمبيدات فى عالم النباتات وأيضاً بعض الأعلاف الضارة التى تسببت فى جنون البقر، وتسببت أخيراً فى وباء الدجاج ...الخ.

ودفع الإنسان الثمن فادحاً لهذا الإفساد، فكانت أمراض العصر : القلب ، والسرطان ، والسكر ، والإكتئاب ، وضعف الذاكرة ...الخ.

وتتوالى نبوءات الآية ، حيث تشير الأية الكريمة إلى محاولة البشر التخلى عن هذا الإفساد ومحاولة معالجة ما أفسدت أيدينا ، فقال تعالى :﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾.

حقاً إنه الإعجاز القرآنى الدائم ما دامت السماوات والأرض ، وحقائق هذا الإعجاز القرآنى تجلوالغشاوات التى تحجب النور عن عيون الغافلين.

وقد دل القرآن الكريم على ذلك فى غير موضع كما فى قوله سبحانه:﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾[١].

يقول **الإمام القرطبى** عند تفسيره لهذه الآية الكريمة : " هو إخبارٌ عما جاءت به العادة فى إهلاك من تقدم من الأمم، والمعنى: كذلك أخذ ربك من أخذه من الأمم المهلكة إذا أخذهم"[٢].

وقد قص علينا المولى فى كتابه أخبار الأمم الاولى، وكيف هانت على الله لما أهانت أمره، وكيف نكل بها لما نكلت عن الصراط المستقيم قال تعالى:.﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتاً وَهُمْ نَآئِمُونَ ۞ أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۞ أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ اللّهِ فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾[٣]

وهذا تحذير لمشركى مكة ولمن بعدهم أن يصيبهم مثل ما أصاب الأمم من قبلهم.

يقول **الإمام الرازى:** " والمقصود أنه تعالى خوفهم بنزول ذلك العذاب عليهم فى الوقت الذى يكونون فيه فى غاية الغفلة وهو حال النوم بالليل وحال الضحى بالنهار، لأنه الوقت الذى يغلب على المرء بالتشاغل باللذات فيه، ويدل قوله تعالى: ﴿ أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ اللّهِ ﴾ أن المراد أن يأتيهم عذابه من حيث لا يشعرون، قاله على وجه التحذير وسمى هذا العذاب مكراً توسعاً"[٤].

وفى موضع آخر يصور تعالى حال الأشقياء عند حلول العذاب بهم، ومفاجآتهم الصراخ استغاثة مما نزل بهم، وتأكيده لهم عدم الغوث يقول سبحانه: ﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ

---

[١] سورة هود الآية ١٠٢
[٢] تفسير القرطبى ٦٤/٥
[٣] سورة الأعراف الآيات ٩٧-٩٩
[٤] تفسير الرازى ٢٠٨،٢٠٩/٧ بتصرف

ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ۞ فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ۞ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ ۞ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ۞ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ ﴾. [١] "والقصم: الإهلاك، وأصله كسر الشيء كسراً فيه انفصال "[٢].

يقول **الإمام الألوسى:** " وفى لفظ القصم الذى هو عبارة عن الكسر بتفريق الأجزاء وإذهاب التئامها بالكلية، كما يشعر به الإتيان بالقاف الشديدة من الدلالة على قوة الغضب وشدة السُخط ما لا يخفى، وقوله : ﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ ﴾ كناية عن قصم أهلها للزوم إهلاكها إهلاكهم"[٣].

والمعنى: وكثيراً أهلكنا من الأمم بسبب ظلمهم وكفرهم وأنشأنا بعدها قوماً آخرين ليسوا منها نسباً ولا ديناً ، والمراد تصوير حالهم عند نزول العذاب بساحتهم ، وبيان صورتهم وهيئتهم الداعية إلى الإستهزاء بهم ، والسخرية منهم .

وذكر القرية والمراد أهلها مبالغة فى الإهلاك والتدمير ، وذلك كقوله سبحانه: ﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾[٤].

قال **الإمام ابن كثير:** " أى قد خربت منازلها، وتعطلت حواضرها، ولا يستقى من آبارها ولا يردها أحد بعد كثرة وارديها، والإزدحام عليها، ولم يحم أهلها شدة بناء قصورها، من حلول بأس الله تعالى بهم "[٥].

وقد بين الله سبحانه وتعالى أن العاقبة السوء تلك للأشقياء فى الدنيا سنة ماضية لا تتخلف فقال سبحانه: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ [٦].

"القرون: جمع قرن وهو المدة من الزمان "[٧].

---

(١) سورة الأنبياء الآيات ١١-١٥
(٢) المعجم الوجيز صـ٥٠٥
(٣) تفسير الألوسى ٢٢،٢٣/١٠ بتصرف
(٤) سورة الحج الآية ٤٥
(٥) مختصر ابن كثير ٥٤٩/٢ بتصرف
(٦) سورة الإسراء الآية ١٧
(٧) معجم ألفاظ القرآن الكريم مجمع اللغة العربية ٤٠/٥

والمعنى: وأهلكنا قروناً كثيرة من بعد نوح بسبب ما ارتكبوا من الفسوق والعصيان، كما يستوحى من تذييل الآية بقوله سبحانه: ﴿ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ أى محيطاً بها باطناً وظاهراً ، فيعاقبهم عليها ويؤاخذهم بها.

ونظير هذه الآية فى تقرير المعنى قوله تعالى: ﴿ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوْا وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ [١]

أى صاحوا مستغيثين حينئذٍ ، وليس الحين حين فوت ونجاة ، " من قولهم ناص ينوص عن قرنه نوصاً ومناصاً، بمعنى: فرَّ وراغ، فالمناص : الهروب والفرار. ويقال أيضاً: ناص من المكروه، نجا منه فالمناص: النجاة والسلامة"[٢].

والمعنيان متلازمان إذ يلزم من الهروب والفرار حصول النجاة.

وقد وردت مظاهر الشقاء فى القرآن الكريم وفى الأحاديث النبوية، وسأحاول – بإذن الله تعالى – إبراز هذه المظاهر والوقوف على معانيها حتى يمكن معالجتها.

ومن ثم فإن الحديث فى هذا الباب ينتظم فى فصلين رئيسيين:

الفصل الاول : ويدور الحديث فيه عن مظاهر الشقاء الدنيوية .

الفصل الثانى : ويدور الحديث فيه عن مظاهر الشقاء الآخروية.

---

[١] سورة ص الآية ٣

[٢] معجم ألفاظ القرآن الكريم مجمع اللغة العربية ١٧٦/٦

obeikandl.com

الفصل الأول

مظاهر الشقاء الدنيوية

ويتكون هذا الفصل من مبحثين:

المبحث الأول: مظاهر الشقاء الدنيوية على النفس

المبحث الثانى: مظاهر الشقاء الدنيوية على البدن

obeikandi.com

المبحث الأول

مظاهر الشقاء الدنيوية على النفس

obeikandl.com

مظـــاهر الشقاء الدنيوية على النفس

مُقَدِّمَة

خلق الله تعالى لكل عبد من عباده نفساً أمارة بالسوء ليختبر مدى صدق عبوديتـــه لـــه، وجعل من أهم صفاتها الجهل والظلم والشح، فهى تميل إلى الشر وتفر من الخيـــر، ولا تحـــب المشقة لذلك فهى تكره أى تكليف.

تحب أن تأخذ حظها من كل فعل يفعله العبد، وأسمى حظ للنفس شعورها بالعلو والرفعة عمن حولها ، لذلك فهى تعمل على إخضاع القلب وتجنيد مشاعره لخدمـــة حظوظهـــا، ويقـــف الشيطن من خلفها مستغلاً جهلها وشحها فيزين لها الأفعال التى تستوفى بها حظوظها الظـــاهرة والخفية، فتلح على القلب ليأمر الجوارح بتنفيذ ما تريده وتهواه، ولأنها محبوبة وما تدعو إليـــه محبوب يذعن القلب البعيد عن الله تعالى لها، فلا يحب العبد شيئاً إلاَّ لنفســـه، ولا يخاصـــم إلاَّ انتصاراً لها، ولا يعادى إلاَّ من يعاديها.

يفرح لما تفرح به، ويحزن لما تحزن به، يرجو ما ترجوه، ويخشى ما تخشاه، وهكذا فى كل المشاعر حتى يتم أسر القلب فيصير عبداً مطيعاً لها، ينفذ أوامرها، ويسير فى ركاب هواها.

فالقلب – كما يعرفه العلماء – هو مجموعة المشـــاعر والأحاســـيس والوجـــدانات فـــى الإنسان من حب وبغض وفرح وحزن وطمأنينة وسكينة وجزع وخشوع وخشية ورجاء وهلـــع ورغبة ورهبة ورحمة وعطف وشفقة وحسرة وندم و...

يقول تعالى : ﴿ أَلاَ بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾[١].

ويقـــول: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنـــــُونَ بِالْـــآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾[٢].

ويقول ﷻ : ﴿ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً ﴾[٣].

ويقول : ﴿ لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُـــونَ بَصِيرٌ ﴾[٤].

---

[١] سورة الرعد الآية ٢٨.
[٢] سورة الزمر الآية ٤٥
[٣] سورة الحديد الآية ٢٧
[٤] سورة آل عمران الآية ١٥٦

ويقول: ﴿وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[١].

ويقول : ﴿ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [٢].

ويقول عز من قائل : ﴿ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾[٣].

فالقلب كينونة الإنسان، وهو الملك المطاع وغيره تابع له من عقل ونفس وجوارح فجميعها جنود له يأتمرون بأوامره وينتهون بنواهيه، فهو الذى يتخذ القرار وعليها التنفيذ، فإذا صلح الجسد كله، وإذا فسد فسد الجسد كله يقول ﷺ : (ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله الا وهى القلب)[٤].

يقول الإمام **ابن حجر**: " والمضغة أى قدر ما يمضغ، وعبر بها هنا عن مقدار القلب فى الرؤية، وسُمى القلب قلباً لتقلبه فى الامور، أو لأنه خالص ما فى البدن وخالص كل شىء قلبه، أو لأنه وضع فى الجسد مقلوباً وخص القلب بذلك لأنه أمير البدن، وبصلاح الأمير تصلح الرعية، وبفساده تفسد، وفيه تنبيه على تعظيم قدر القلب والحض على صلاحه والإشارة إلى أن لطيب الكسب أثراً فيه "[٥].

" وفيه إشارة إلى أن صلاح حركات العبد بجوارحه واجتنابه للمحرمات واتقاءه للشبهات بحسب صلاح حركة قلبه فإن كان قلبه سليماً ليس فيه إلاَّ محبة الله وخشية الوقوع فيما يكرهه صلحت حركات الجوارح كلها ونشأ عن ذلك اجتناب المحرمات كلها، وتوقى الشبهات حذراً من الوقوع فى المحرمات، وإن كان القلب فاسداً قد استولى عليه اتباع هواه وطلب ما يحبه ولو كرهه الله فسدت حركات الجوارح كلها، وانبعثت إلى كل المعاصى والمشتبهات بحسب اتباع هوى القلب "[٦].

---

[١] سورة التوبة الآية ١٥
[٢] سورة الحج الآية ٣٥
[٣] سورة الأحزاب الآية ٢٦
[٤] أخرجه البخارى ، كتاب الإيمان ، باب فضل من استبرأ لدينه رقم (٥٢) ، ومسلم كتاب المساقاة ، باب أخذ الحلال وترك الشبهات رقم ١٠٧ – ١٥٩٩ ، وأبو داود رقم (٣٣٣٠) والترمذى رقم (١٢٠٥) ، وابن ماجه رقم (٣٩٨٤)
[٥] فتح الباري بشرح صحيح البخاري للإمام الحافظ الحجر العسقلاني ٢٥٣/١.
[٦] جامع العلوم والحكم لابن رجب صـ٩٦

فالقلب للأعضاء كالملك المتصرف فى الجنود التى تصدر كلها عن أمره ويستعملها فيما يحب، وتكتسب منه الإستقامة والزيغ، وتتبعه فيما يعقده من العزم أو يحله، فهو ملكها وهى المنفذة لما يأمرها به القابلة لما يأتيها من هديه، ولا يستقيم لها شىء من اعمالها حتى تصدر عن قصده ونيته، وهو المسئول عنها كلها، فكل راع مسئول عن رعيته، لذا كان الإهتمام بتصحيح القلب أول ما اعتمد عليه السالكون، والنظر فى أمراضه وعلاجها أهم ما تنسك به الناسكون.

والقلب هو المكلف من قبل الله ﷻ بأن يخضع مشاعره وأحاسيسه له، فيجعل حبه لله فلا يحب أحداً لذاته فالمحبوب لذاته هو الله ﷻ فقط، وأى شخص يُحب فمن أجل الله تعالى.

فإذا فقد القلب وظيفة محبة الله ﷻ وعبادته فإنه يكون أشقى من العين إذا فقدت نورها، ومن الاذن إذا فقدت سمعها، فلذلك يظل القلب فى تقلب وشقاء وهم وغم وحزن حتى يعرف ربه ﷻ، فإذا عرف ربه سعد به واستغنى بحبه عن حب ما سواه، وبذكره عن ذكر ما سواه، وبخدمته عن خدمة ما سواه، فسعادة الدنيا والآخرة منوطة بصلاح القلوب وشقاء الدنيا والآخرة منوطة بفسادها.

١- هذا وإن من مظاهر الشقاء الدنيوية على النفس: **الطبع على القلب**.

قال تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ ۞ خَتَمَ اللّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عظِيمٌ ﴾ [١].

يقول **القرطبى**: "ومعنى الختم على القلوب كما فى الآية: عدم الوعي عن الحق سبحانه مفهوم مخاطباته والفكر في آياته وعلى السمع: عدم فهمهم للقرآن إذا تلى عليهم أو دعوا إلى وحدانيته، وعلى الأبصار: عدم هدايتها للنظر فى مخلوقاته وعجائب مصنوعاته"[٢].

فإسراف العبد فى المحرمات، وإصراره على ترك المأمورات سبيل إلى تغطية قلبه، بل يطبع عليه حتى يصير صاحب الذنب من الغافلين قال تعالى: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللّهِ وَقَتْلِهِمُ الأَنْبِيَاء بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾[٣].

---

[١] سورة البقرة الآيتان ٦-٧
[٢] تفسير القرطبى ١/١٣٠
[٣] سورة النساء الآية ١٥٥

يقول **العلامة الألوسى:** " وهذا الطبع بمعنى الخذلان والمنع من التوفيق للتدبر فى الآيات والتذكر بالمواعظ عند الكثير، وطبع حقيقى عند البعض ومعنى قوله سبحانه ﴿ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾أى إلاَّ إيماناً قليلاً، فهو كالتصديق بنبوة موسى عليه السلام وهو غير مفيد لأن الكفر بالبعض كفر بالكل"[١].

فلا يزال العبد يرتكب المعاصى حتى تهون عليه وتصغر فى قلبه، فيصدأ القلب من المعصية، فإذا زادت غلب الصدأ حتى يصير راناً، فيصير القلب فى غشاوة قال تعالى: ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[٢].

يقول **العلامة الزمخشرى** فى تفسيره لهذه الآية الكريمة: " ﴿ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ ركبها كما يركب الصدأ وغلب عليها وهو أن يصر على الكبائر ويسوّف التوبة حتى يُطبع على قلبه فلا يقبل الخير ويميل إليه"[٣].

ويقول **الإمام ابن القيم:** "إن الذنوب إذا تكاثرت طبع على قلب صاحبها فكان من الغافلين، وأصل هذا أن القلب يصدأ من المعصية، فإذا زادت غلب الصدأ حتى يصير راناً، ثم يغلب حتى يصير طبعاً وقفلاً وختماً، فيصير القلب فى غشاوة وغلاف فإذا حصل له ذلك بعد الهدى والبصيرة انتكس فصار أعلاه أسفله، فحينئذٍ يتولاه عدوه وسوقه حيث أراد"[٤].

فالطبع على القلب ما هو إلاَّ نتيجة للمعاصى المتراكمة والمستمرة والتى كم يحاول صاحبها أن يغسلها بالتوبة النصوح، فيزداد حب المعاصى على مرآة القلب وبصيرته حتى تطمس ويعلوها الصدأ والران، كالغشاوة فى القلب، ومعاندة النفس وانشراح الصدر بالشهوات، وفقدان حلاوة الطاعات، وترادف المشاغل المانعة من بروق شواردالأنوار، واستيلاء دولة الهوى، إلى غير ذلك من حلول الإرتياب ونسيان المرجع والمآب، والغفلة عن طول الحساب وشدة العذاب يوم القيامة.

٢- ومن الآثار والمظاهر الدنيوية أيضاً : **قسوة القلب وغلظته**

---

(١) تفسير الألوسى ١٤/٤ بتصرف
(٢) سورة المطففين الآية ١٤
(٣) تفسير الزمخشرى ٩٦/٤
(٤) الداء والدواء لابن قيم الجوزية صـ٦٣ ، ٦٤ بتصرف

قال تعالى: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِ وَلاَ تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىَ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمُ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾[١].

يقول **الإمام أبو السعود:** "والباء فى قوله تعالى ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ ﴾ سببية وما مزيدة لتأكيد الكلام وتمكينه فى النفس أى بسبب نقضهم ميثاقهم المؤكد لا بشىء آخر استقلالاً أو انضماماً ﴿ لَعنَّاهُمْ ﴾ طردناهم وأبعدناهم من رحمتنا أو مسخناهم قردة وخنازير أو أذللناهم بضرب الجزية عنهم ﴿ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً ﴾ بحيث لا تتأثر من الآيات والنذر، وقيل: أمليا لهم ولم نعاجلهم بالعقوبة حتى قست أو خذلناهم ومنعناهم الألطاف حتى صارت كذلك "[٢].

فقسوة القلب تتضمن نقض العهد، وتحليل عقد الود والإيثار على المولى ﷻ والطاعة للهوى، وخلع جلباب الحياء، والمبادرة لله بما لا يرضى، مع ما فى ذلك من الآثار الظاهرة من الغلظة فى القلب، والغفلة عن العبادة، والكسل فى خدمة المولى، وترك الحفظ لحرمات الله تعالى وظهور كسب الشهوات وذهاب بهجة الطاعات.

قال تعالى إخباراً عن بنى إسرائيل: ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاء وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللّهِ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾[٣].

يقول **العلامة الشوكانى** عند تفسير قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ﴾ "والإشارة بقوله من بعد ذلك إلى ما تقدم من الآيات الموجبة للين القلوب ورقتها، قيل (أو) فى قوله ﴿ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ بمعنى الواو وقيل هى بمعنى بل وعلى أن (أو) على أصلها أو بمعنى الواو، فالعطف على قوله ﴿ كَالْحِجَارَةِ ﴾ أى هذه القلوب هى كالحجارة أو هى أشد قسوة منها، فشبهوها بأى الأمرين شئتم فإنكم مصيبون فى هذا التشبيه "[٤].

فالتمادى فى المعاصى يوجب الإصرار عليها، والإصرار يوجب الغفلة عن الله تعالى ومن غفل عن الله تجرأ عليه فقسى قلبه فهلك. قال تعالى ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ

---

(١) سورة المائدة الآية ١٣
(٢) تفسير أبى السعود ١٨/٢
(٣) سورة البقرة الآية ٧٤
(٤) تفسيرفتح القدير للشوكانى ١٠٠/١ بتصرف يسير

قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنْ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمْ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾[١].

والمعنى" أما آن للمؤمنين أن تخشع قلوبهم أى تلين عند الذكر وسماع القرآن فتفهمه وتنقاد له وتطيعه ! أما آن لطائفة من المؤمنين – وهم الذين فترت قلوبهم نوعاً ما عن الخشوع – أن تخشع قلوبهم، وتقبل على امتثال أمر الله بأرواح مطمئنة، ونفوس راضية مرضية، لأجل تذكيرهم بالله، ولأجل استماعهم لوعظ القرآن ﴿ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ ﴾ نهى الله المؤمنين أن يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبلهم كاليهود والنصارى، فطال عليهم الزمن، وجرفتهم حوادث الأيام فطغت عليهم حتى قست قلوبهم وصارت كالحجارة أو أشد قسوة، وبعدوا بذلك عن الدين الحق فكتبوا كتباً نسبوها لله، والواقع أنها لهم، هذه الكتب فيها شىء من الحق، وكثير من الباطل، فكان منهم لهذا قليل من المؤمنين لم يغيروا ولم يحرفوا، وكثير منهم فاسقون"[٢].

لقد عاتب الله المؤمنين فى العصر الأول بهذه الآية، ونحن نعرف للرعيل الأول كله على العموم فضله وسبقه وحسن إيمانه، وكمال إسلامه فما بالنا نحن الآن !! ألم يأن لنا أن نعود إلى القرآن، ألم يأن للمسلمين جميعاً فى مشارق الارض ومغاربها أن يهتدوا إلى الحق، وإلى الصراط المستقيم! ألم يأن لهم أن يثوبوا إلى رشدهم، ويعودوا إلى صوابهم مرة ثانية ؟؟

٣- ومن مظاهر الشقاء على النفس أيضاً: **ظلمة القلب**

قال تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾[٣]

يقول **العلامة الألوسى:** " والمعنى أنه لا يُعتد بعمى الأبصار وإنما يعتد بعمى القلوب، فكأن عمى الأبصار ليس بعمى بالإضافة إلى عمى القلوب، فالكلام تذييل لتهويل ما بهم من عدم فقه القلب وأنه العمى الذى لا عمى بعده ، أو المعنى أن أبصارهم صحيحة سالمة لاعمى بها وإن العمى بقلوبهم، ثم يقول رحمه الله تعالى: ووصف القلوب بالتى فى الصدور للتأكيد"[٤].

---

[١] سورة الحديد الآية ١٦
[٢] التفسير الواضح للدكتور /محمد محمود حجازى ٦١٧/٣
[٣] سورة الحج الآية ٤٦
[٤] تفسير الألوسى ٢٤٨/١٠ ، ٢٤٩ بتصرف

فالقلب بمثابة العين، فمن يفعل المحرمات ويرتكب المعاصى يظلم قلبه وتنطمس بصيرته ويقول ﷻ: ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَّ يُبْصِرُونَ ﴾[١]

يقول **الإمام الرازى** مبيناً سر تشبيه الإيمان بالنور، والكفر بالظلمة: "والوجه فيه أن النورقد بلغ النهاية فى كونه هادياً إلى المحجة، وإلى طريق المنفعة، وإزالة الحيرة، وهذا حال الإيمان فى باب الدين، فشبه ما هو النهاية فى إزالة الحيرة ووجدان المنفعة فى باب الدين ما هو الغاية فى باب الدنيا، وكذلك القول فى تشبيه الكفر بالظلمة لأن الضال عن الطريق المحتاج إلى سلوكه، لا يرد عليه من أسباب الحرمان والتحير أعظم من الظلمة، ولا شىء كذلك فى باب الدين أعظم من الكفر، فشبه تعالى أحدهما بالآخر، وشبه حال المنافقين واضطرابهم لشدة تمسكهم بالعناد وإعراضهم عما يطرق سمعهم من القرآن وما يظهره الرسول ﷺ من الآيات بمن هو أصم فى الحقيقة فلا يسمع وإذا لم يسمع لم يتمكن من الجواب، ولذلك جعله بمنزلة الأبكم، وإذا لم ينتفع بالأدلة، ولم يبصر طريق الرشد فهو بمنزلة الأعمى"[٢].

فمثال الإيمان مع العبد العاصى كالشمس المكسوفة، أو كالسراج المنير إذا تغطى بغلاف أسود، فضوؤه موجود، ولكن يمنع نوره الغطاء، فكذلك الإيمان موجود فى القلب ولكن غطته غشاوة المعاصى والذنوب.

فالأنوار مطايا القلوب والأسرار، النور جند القلب كما أن الظلمة جند النفس، فإذا أراد الله تعالى أن ينصر عبده على شهوته أمده بجنود الأنوار وقطع عنه مدد الظلم والأغيار. قال تعالى: ﴿ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴾[٣].

" قال ابن عباس – رضى الله عنهما – إن للحسنة ضياء فى الوجه، ونوراً فى القلب وسعة فى الرزق، وقوة فى البدن، ومحبة فى قلوب الخلق، وإن للسيئة سواداً فى الوجه وظلمة فى القلب ووهناً فى البدن، ونقصاناً فى الرزق وبغضاً فى قلوب الخلق"[٤].

فالمعصية تظلم القلب وتضيقه وتغمه وتحزنه وتؤلمه فيشتد قلقه واضطرابه، وتمزق شمله، وتضعفه عن مقاومة أعدائه فيستكين لوسوستهم، وربما انتحر فى هذه اللحظة التى فقد

---

[١] سورة البقرة الآية ١٧
[٢] تفسير الرازى ٤٥٤/١ ، ٤٥٧ بتصرف
[٣] سورة النور الآية ٤٠
[٤] تفسير ابن كثير ٢٩٦/٣

فيها الإيمان برحمة ربه المفرج لكربه. قال تعالى :﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاء كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾[١].

يقول **الإمام الرازى** موضحاً حقيقة شرح الصدر بسبب الهداية : " إذا اعتقد الإنسان فى عمل من الأعمال أن نفعه زائد وخيره راجح مال طبعه إليه، وقويت رغبته فى حصوله وحصل فى القلب استعداد شديد لتحصيله فتسمى هذه الحالة بسعة النفس، وإذا اعتقد فى عمل من الأعمال أن شره زائد وضرره راجح عظمت النُفْرة عنه وحصل فى الطبع نُفرة وَنَبْوة عن قبوله "[٢].

فمن الملاحظ أن الحوادث التى تحدث للإنسان يشعر بها بقلبه كالخوف والفرح والحزن والهم والضيق، أكثر مما يشعر بها مخه أو بأحد أعضائه وأغرب من ذلك أن كل عضو قد يقف عن العمل ولو قليلاً دون ضرر إلاَّ القلب فإذا وقف دقائق مات الإنسان، وماتت معه أعضاؤه، كما أن الصدمات العصبية والمادية من مفاجآت كفرح شديد، أو حزن غالب، أو صدمة كهربائية تؤثر على القلب أكثر من تأثيرها على أى عضو آخر لذا فإن المعاصى تزيل أمن القلب وأنسه فيكون دائماً فى وحشة ويأس وسخط.

يقول **الإمام ابن القيم:** " إن من أعظم أسباب ضيق الصدر : الإعراض عن الله تعالى، وتعلق القلب بغيره، والغفلة عن ذكره وشكره، ومحبة سواه، فإن من أحب شيئاً غير الله عُذب به، وسُجن قلبه فى محبة ذلك الغير، فما فى الأرض أشقى منه ولا أكسف بالاً، ولا أنكد عيشاً ولا أتعب قلباً، فهما محبتان: محبة هى جنة الدنيا ونعيم الروح غذاؤها ودواؤها، بل حياتها وقرة عينها، وهى محبة الله تعالى، ومحبة هى عذاب الروح وغم النفس، وسجن القلب، وضيق الصدر وهى سبب الألم والنكد والعناء وهى محبة ما سوى الله تعالى"[٣].

من هذا يتبين أن القلب السليم القوى قوى بالإيمان، وبالعمل الصالح وبالطاعات وبالإلتزام بالكتاب والسنة، أما إذا سلك المرء طريقاً آخر وسار وراء الذنوب والمعاصى، ضعفت تلك القوة اتى تسيره وكان من الأشقياء.

---

[١] سورة الأنعام الآية ١٢٥
[٢] تفسير الرازى ٥٦٢/٦
[٣] زاد المعاد فى هدى خير العباد للإمام ابن قيم الجوزية ٢٢/٢، ٢٣

قال الإمام ابن المبارك :

" رأيت الذنوب تميت القلوب ⁂ وقد يورث الذل إدمانها
وترك الذنوب حياة القلوب ⁂ وخير لنفسك عصيانها
وهل أفسد الدين إلاَّ الملوك ⁂ وأحبار سوء ورهبانها "[1]

وقصارى القول :

فإن للقلب بصيرة يبصر بها إذا تعهدها العبد وصقلها بصورة مستمرة أبصر بها طريقة إلى الله تعالى، أما إذا تركها بدون تعهد فمصيرها الطمس بدخان المعاصى فيعمى القلب وإذا أظلم القلب أقبلت عليه سحائب البلاد والشر من كل مكان، فما شئت من بدعة وضلالة واتباع هوى واجتناب هدى وإعراض عن أسباب السعادة واشتغال بأسباب الشقاوة، فإن ذلك إنما يكشفه النور الذى فى القلب فإذا فقد ذلك النور بقى صاحبه كالأعمى الذى يجوس فى حنادس الظلام.

الخلاصة :

مما سبق تبين لنا أن القلب هو محل المعرفة والإبصار فى الإنسان، وهو الذى يسير إلى الله تعالى، ولقد سخره الله ﷻ كل ما فى الأرض ليؤدى مهمة العبودية له.

فالمطلوب من القلب عبادة الله، وتتمثل هذه العبادة فى الذل لله، والخضوع له والإستسلام لقضائه وقدره، والإنابة إليه، والخشية منه، وطاعة أوامره واجتناب نواهيه، وحب ما يحبه وبغض ما يبغضه، وموالاة من يواليه، ومعاداة من يعاديه، والفرح بفضله والحزن عند التقصير فى القيام بحقوقه، والتحاكم إليه، والغضب من أجله.

ولهذا القلب أذناً يسمع بها ومرآة يبصر من خلالها، هذه المرآة إذا ما تركت بدون رعاية وتعهد أظلمت بدخان المعاصى وتكونت أمامها حجب كثيرة تمنع القلب من الرؤية فيصير أعمى لا يرى.

وكلما ازداد الظلام وازداد الصدأ ازدادت سطوة النفس على القلب حتى تأسره وتستعبده فتخضع المشاعر والوجدانات المكونة للقلب لها، فيحب ما تحبه ويبغض ما تبغضه ويتخاصم من أجلها ويغضب لها، ويفرح لما يفرحها، ويحزن لما يحزنها، وهكذا فى بقية المشاعر.

---

[1] تحذير الدانى والقاصى من عقوبات الذنوب والمعاصى جمع وترتيب محمد فريد صـ٤٦ مكتبة الإيمان – الإسكندرية – بدون. وانظر الجواب الكافي لابن قيم الجوزية صـ٥٩.

obeikandl.com

فعندما يهم القلب بآداء طاعة معينة يقوم الملك الموكل به بتزيينها له، ويقوم العقل بحسب درجة العلم فيه بالترغيب فى آدائها، وعندما يجد الشيطان أن القلب عازم على آداء هذه الطاعة فإنه يبدأ فى الوسوسة للنفس لتلحَّ على القلب لتختلق له المعاذير ليمتنع عن آداء هذه الطاعة.

فإن جاهد العبد نفسه وهواه وعزم على آدائها ورأى الشيطان منه ذلك فإنه لا يتركه، بل يوسوس للنفس لتستوفى حظوظها من هذه الطاعة، فقد تزين له آدائها أمام الناس ليروه فتكبر صورته فى نظرهم فتغتر النفس وتنتفخ لذلك فإن كانت الطاعة فى الخفاء حسنت فعله لها بعد آدائها وزينته فى نظره حتى يُعجب بها، وينسى أن الله ﷻ هو الذى أعانه عليها، فإن أعجب بفعله ساقته إلى المقارنة بأقرانه ليرتفع بفعله عليهم فيتكبر ويغتر، وفى النهاية تكون النفس قد نالت نصيبها من الفعل إن لم ينتبه العبد لذلك.

فبمقدار ما يخلص من الطاعة لله يكون الأثر على القلب، فإن راءى الإنسان بطاعته فإن أثر هذه الطاعة لا يصل إلى شجرة الإيمان فى القلب بل يصل إلى شجرة الرياء، فتسقى بهذا الأثر وتنمو أمام مرآة القلب، فإن تكبَّر بهذه الطاعة نبتت بأثرها شجرة الكبر أمام القلب، وإن تفاخر وتباهى واغتر بها نمت بذلك شجرة الغرور والعجب والنفاق، وإن لم يفعل ذلك بل أدى الطاعة وهو غافل شارد نمت بذلك شجرة الغفلة، وبمرور الوقت وبنسيان الإنسان لنفسه تنمو هذه الشجرات فى قلبه وتكوَّن حجباً كثيفة أمام مرآة القلب تمنع وصول الأنوار والإشراقات الربانية إليه فيصير القلب محجوباً عن الله تعالى.

فالإيمان ينمو فى القلب بإخلاص الطاعة لله وبحسب درجة الإخلاص تكون قوة الإيمان وكلما ازداد الإيمان فى القلب ازداد الإشراق فيه وتمكن من الرؤية ببصيرته ومن سماع صوت العقل، ومن ثم يتمكن القلب من عبادة الله فيخضع مشاعره له فيتوكل عليه وينيب إليه ويخشاه ويرجوه وتهون الدنيا عليه ويتعلق قلبه بالآخرة و... أما إذا ضعف الإيمان فى القلب ازداد استسلام القلب للنفس وازدادت الحجب بينه وبين الله فتسود المرآة وتطمس بصيرة القلب ويخفت صوت العقل وصوت الملك فلا يعود يرى إلاَّ ما تراه نفسه ،ولا يعود يسمع إلاَّ ما تمليه عليه نفسه فصبح حاله كما وصفه القرآن الكريم: ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَـئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾[1].

والقلب بأصل فطرته صالح لقبول آثار الملك ولقبول آثار الشيطان صلاحاً متساوياً ليس يترجح أحدهما على الآخر، وإنما يترجح أحد الجانبين باتباع الهوى والإكباب على الشهوات أو

---

[1] سورة الأعراف الآية ١٧٩

الإعراض عنها ومخالفتها، فإن اتبع الإنسان مقتضى الغضب والشهوة ظهر تسلط الشيطان بواسطة الهوى وصار القلب عش الشيطان ومرتعه، لأن الهوى هو مرعى الشيطان ومرتعه، وإن جاهد الشهوت ولم يسلطها على نفسه وتشبه بأخلاق الملائكة عليهم السلام صار قلبه مستقر الملائكة ومهبطهم، والتطارد بين جندى الملائكة والشياطين فى معركة القلب دائم إلى أن يفتح القلب لأحدهما فيستوطن ويستمكن ويكون احتياز الثانى إختلاساً، وأكثر القلوب قد فتحها جنود الشياطين وتملكتها فامتلأت بالوساوس الداعية إلى إيثار العاجلة وإطراح الآخرة، ومبدأ استيلائها اتباع الشهوات والهوى ولا يمكن فتحها بعد ذلك إلاَّ بتخلية القلب عن قوت الشيطان وهو الهوى والشهوات، وعمارته بذكر الله تعلى الذى هو مطرح أثر الملائكة.

عن حذيفة بن اليمان ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ (تُعرض الفتن على القلوب كعرض الحصير عوداً عوداً، فأى قلب أشربها نكتت فيه نكتة سوداء، وأى قلب أنكرها نكتت فيه نكتة بيضاء، حتى تعود القلوب على قلبين: قلب أسود مرباداً كالكوز مُجَخِّياً لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً إلاَّ ما أشرب من هواه، وقلب أبيض لا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض)[١].

"فالفتن على اختلاف أشكالها كفتنة المال والنساء والشهوات أى كل إغراءات الدنيا ومفاتنها تعرض على القلوب شيئاً فشيئاً مثل العيدان التى ركبت وصنعت منها الحصير فقد صنعت من عيدان صغير ركب بعضها بجوار بعض حتى قويت واستحكمت ... والقلوب أثناء عرض الذنوب والفتن عليها على قسمين:

أ- قلب أحبها وأشربها كما يشرب الإسفنج الماء، وفى هذه الحالة توضع فى القلب نكته سوداء، ولا يزال يشرب كل فتنة تعرض عليه حتى يسود وينتكس، وهذا معنى قوله: مجخياً أى مكبوباً منكوساً، فلا يفرق بين المعروف والمنكر ولا الحلال ولا الحرام، بل يشتبه عليه الامر فيعتقد الحلال حراماً والحرام حلالاً، ويتبع هواه وينقاد له.

ب- قلب نفر من الفتن ولم تجد لها مجالاً فيه فينكرها، ويفر منها، هنا تطبع فى القلب نكته بيضاء حتى يبيض القلب ويشرق بنور الإيمان فلا تضره بعد ذلك فتنة ما دامت السموات والأرض"[٢].

ويوضح **الإمام ابن القيم** هذا الأمر فيقول : " فبين العمل وبين القلب مسافة، وفى تلك المسافة قُطَّاع تمنع وصول العمل إلى القلب، فيكون الرجل كثير العمل وما وصل منه إلى

---

[١] أخرجه مسلم – كتاب الإيمان – باب بيان أن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً وإنه يأرز بين المسجدين (رقم ١٤٤) وأبو نعيم فى المستخرج (٢١٠/١)

[٢] شرح ثلاثيات مسند الإمام أحمد ، تأليف الشيخ محمد الحنبلى ٥٤٧/١ المكتب الإسلامى بيروت ، الطبعة الرابعة ١٤١٠ هـ – ١٩٩٠ م .

قلبه محبة ولا خوف ولا رجاء، ولا زهد فى الدنيا ولا رغبة فى الآخرة ولا نور يفرق به بين أولياء الله وأعدائه، وبين الحق والباطل، ولا قوة فى أمره، فلو وصل أثر الأعمال إلى قلبه لاستنار وأشرق، ورأى الحق والباطل، وميز بين أولياء الله وأعدائه ...)[1]

والإنسان له عقل وقلب ونفس، والقلب هو الملك أما العقل والنفس وبقية الجوارح فما هى إلاَّ جنود له، وهذا القلب له أذن يسمع بها ومرآة يبصر بها، هذه الأذن تستمع إلى صوت العقل وتستمع كذلك إلى صوت النفس فإن كان صوت العقل ضعيفاً سيطر صوت النفس على أذن القلب وازداد تأثيره عليه عند اتخاذ القرار، وإن طمست مرآة القلب بدخان المعاصى والبعد عن الله عمى القلب.

فمن ترك العقل بدون تكوين سيطر صوت النفس على القلب، ومن ترك مرآة القلب بدون صقل فستصدأ ويعمى القلب، فلا يستطيع أن يميز بين الحق والباطل، ومن ترك النفس بدون ترويض ومجاهدة فستأسر القلب، لذلك لابد من الإهتمام بها جميعاً فى وقت واحد حتى تؤتى الثمار ويكون النتاج سليماً.

---

[1] تهذيب مدراج السالكين صـ٢٣٥ لابن القيم – هذبه عبد المنعم صالحى العذب ط دولة الإمارات – وزارة الاوقاف – بدون .

obeikandl.com

المبحث الثانى

مظاهر الشقاء الدنيوية على البدن

obeikandl.com

مظاهر الشقاء الدنيوية على البدن

مُقَدِّمَة

تجتاح العالم ما بين حين وآخر، أزمات مالية اقتصادية، فتُحدث ارتباكاً في أسواق العالم، واضراباً في أحواله العامة، بل تهزُّ هزاً عنيفاً كيان الناس، وربما تنتهي بهم في آخر الأمر إلى الإفلاس! وهم يواصلون الليل بالنهار، ويعملون بمنتهى الجد والإجتهاد، لتفريج الأزمات أو التخفيف على الأقل من حدَّتها، حتى يصل الناس رويداً رويداً إلى الرخاء المنشود، ولكن الأزمة لا تكاد تنتهي حتى تتجدد، ولا تبدَّد! فماذا عسى أن يكون السبب ياترى ؟!

إننا – وإن لم نكن من خبراء الإقتصاد الذين يعلِّلونها تعليلات علمية بلغة الحساب والأرقام – فإن في تصورنا أن عوامل الأزمة لا تقف عند هذه التعليلات العلمية، ولا تلك التحليلات الحسابية الرقمية، بل تمتد بجذورها إلى أسباب دينية روحية، بل ربما كانت أفعل وأبلغ في حدوث هذه الأزمات! فإن العالم اليوم يموج بالغش والخداع، ويمتلىء بالجشع والأطماع، ويفيض بالأنانية والأثرة وحب الذات، ويعجُّ بالظلم والقهر والإستبداد، وينتهج في مساراته نهج الباطل، بحيث لا يعرف الحق، ولا يؤمن به، ولا يعمل من أجله، مخالفاً بذلك السَّنن الكونية، التي عليها يجب أن يسير العالم، حتى يتجنب التردِّي في الهاوية، فإن قدمه إن زلَّت وسقط فيها، كانت نهايته المحتومة المشئومة! ذلكم بأن الحق هو الذي قام به أمر السماء والأرض، فهو فكرة وجود الكون، وهو شرط لبقاء الكون قال تعالى:﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾[1].

فكل ما خالف الحق في وضعه، فقد تأذن وجوده بالعدم، وحكم على نفسه بالزوال! فليس غريباً ولا عجباً – والعالم يحاول أن يغيِّر خلق الله، ويسير بالكون في طريق الباطل لا في طريق الحق – أن يرميه الله سبحانه بالأزمات المهدِّدة أشكالاً وألواناً، فتارة أزمات اقتصادية كما أسلفنا القول فيها، وتارة أخرى أزمات طبيعية، مثل العواطف المدمِّرة، والرياح العاتية، والسيول الجارفة، والزلازل الساحقة، وثورات البراكين الماحقة: تُخرِّب وتُهدِّم، وتُكسِّر وتُحطِّم، ويروح ضحيتها آلاف الآلاف من الآدميِّين! وأحياناً تنشق الأرض، وتزحف الجبال، فتبتلع مدناً بأكملها، ولا تُبقي لها من أثر!!

---

[1] سورة الحجر الآية ٨٥

كل هذا وغيره، إنذارات إلهيه لهذا العالم الضالّ، عساه يثوب لرشده ويرجع عن غيِّه، ويعرف ربَّه، فيلتزم الحق ويسير على الصراط المستقيم، وعندئذٍ ينصلح الحال، ويكثر المال، ويعمّ الرخاء، ويسود السلام، ويعيش الناس فى بحبوحة من الأمن، وسعة من العيش، وحبّ صادق دائم، لا يشوبه نزاع ولا كراهية ولا خصام قال تعالى: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ۞ يُرْسِلْ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ۞ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴾[١].

١- هذا وإن من مظاهر الشقاء الدنيوية على البدن : **محق البركة**

قال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ ﴾[٢].

يقول **ابن كثير**: "قوله تعالى:﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ ﴾أى آمنت قلوبهم بما جاء به الرسل وصدقت به واتبعوا واتقوا بفعل الطاعات وترك المحرمات: ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ ﴾ أى قطر السماء ونبت الأرض"[٣] فإن أهل هذه القرى لو اتقوا الله حق تقاته لأمرهم سبحانه بالرزق والعطاء من حيث لا يعلمون.

يقول **القاسمى** فى تفسيره للآية الكريمة: " قوله تعالى :﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى﴾ أهل مكة ﴿آمَنُواْ﴾ أى بالله ورسله ﴿وَاتَّقَواْ﴾ أى الكفر والمعاصى ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ ﴾أى لوسعنا الخير ويسرناه لهم من كل جانب فكان ما أصابهم من فنون العقوبات، التى بعضها من السماء وبعضها من الأرض"[٤].

يقول **ابن القيم**: "إنها أى الذنوب والمعاصى تمحق بركة العمر، وبركة الرزق، وبركة العلم وبركة العمل، وبركة الطاعة.

وبالجملة، إنها تمحق بركة الدين والدنيا، فلا تجعل أقل بركة فى عمره، ودينه، ودنياه ممن عصى الله، وما محيت البركة من الأرض إلاّ بمعاصى الخالق قال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ ﴾ وليست سعة الرزق والعمل بكثرته ، ولا طول العمر بكثرة الشهور والأعوام، ولكن سعة الرزق بالبركة والعمر فيه

---

[١] سورة نوح الآيات ١٠-١٢
[٢] سورة الأعراف الآية ٩٦
[٣] مختصر ابن كثير ٣٩/٢
[٤] تفسير القاسمى ٢٢١/٧ باختصار.

... ثم يقول... إنما كانت معصية الله تعالى سبباً لمحق بركة الرزق والأجل، لأن الشيطان موكل بها وبأصحابها، فسلطانه عليهم وحوالته على هذا الديوان ، وأهله وأصحابه ، وكل شيء يتصل به الشيطان ويقارنه ، فبركة ممحوقة ولهذا شُرع ذكر اسم الله تعالى عند الأكل والشرب واللبس والركوب والجماع لما فى مقارنة اسم الله من البركة ، وذكر اسمه يطرد الشيطان ، فتحصل البركة ولا معارض له وكل شيء لا يكون لله فبركته منزوعة ، فإن الرب هو الذى يبارك وحده ، والبركة كلها منه.

وضد البركة اللعنة، فأرض لعنها الله، أو شخص لعنه الله، أو عمل لعنه الله، أى أبعد من الخير والبركة ، وكل ما اتصل بذلك وارتبط به وكان منه بسبيل فلا بركة فيه البته، ....فمن الناس من يعيش فى هذه الدار مائة سنة ، او نحوها ، ويكون عمره لا يبلغ عشر سنين ، أو نحوها كما أن منهم من يملك القناطير المقنطرة من الذهب والفضة ويكون ماله فى الحقيقة لا يبلغ ألف درهم أو نحوها ، وهكذا الجاه والعلم "[1].

"فبركات من السماء المطر وبركات الأرض النبات والثمار وجميع ما فيها من الخيرات والأنعام والأرزاق والأمن والسلامة من الآفات ، وكل ذلك من فضل الله ، وإحسانه على عباده، وأصل البركة ثبوت الخير الإلهى فى الشيء ، ويُسمى المطر بركة السماء لثبوت البركة فيه وكذا ثبوت البركة فى نبات الأرض لأنه نشأ من بركات السماء وهو المطر ، قوله ﴿وَلَكِن كَذَّبُواْ ﴾أى الرسل فلم يؤمنوا بهم ولم يتقوا، وقوله ﴿ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ أى من الكفر والمعاصى"[2].

فما من أمة التزمت أمر ربها إلاَّ فتح الله عليهم بركات[3] السماء والأرض ، وما من أمة كفرت إلاَّ أوشك الله أن يعمهم بعذاب، ويذيقهم لباس الجوع والخوف.

ولذا فى القرآن الكريم عن الأمم السابقة أدلة كثيرة وأمثلة عملية من تاريخ البشرية لتكون نموذجاً تطبيقياً لمن اتبع واطاع ففاز ، ولمن خالف وعصى فضلَّ وهلك قال تعالى:

---

[1] الجواب الكافى صـ٨٤، ٨٥ باختصار

[2] تفسير الجمل ١٦٨/٢ بتصرف مطبعة عيسى البابى وشركاه بمصر.

[3] هذا الفتح للمؤمنين فتح بركة ونعمة أثره فيهم الشكر والحمد ، وهو بخلاف فتح الله على الكافرين فهو فتح ابتلاء أثره فيهم فرح البطر والأشر، وهو مكر من الله بهم كما قال سبحانه : ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُواْ بِمَا أُوتُواْ أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴾ الأنعام ٤٤ ، فهناك فرق بين الفتحين "المنار – رشيد رضا ٢٤/٩ بنحوه "

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ﴾[١].

وقال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ۞ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ۞ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴾[٢].

"والمعنى: جعلنا لهم جنتين من أشجار قليلة التمر والنفع بعد جنتين عظيمتين، والخمط هو الشيء المر، والأثل شجر يشبه الطرفاء، والسدر: شجر له شوك ويتخذ من ورقه غسولاً له رائحة حسنة وهو المعروف بشجر النبق، ووصف بالقلة لإفادة قلة المنفعة من هاتين الجنتين، وسميت جنة من باب المشاكلة اللفظية قصداً للتهكم بهم ومن حالهم التي صاروا إليها لقاء إعراضهم وكفرهم"[٣].

وقال تعالى: ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾[٤].

إنها نماذج عملية للتحذير كي لا نقع في مثل ما وقعوا فيه فنضل ونشقى، وهكذا جعل الله بقاء الأمم ونمائها في التحلي بالفضائل وجعل هلاكها ودمارها في التخلي عنها، سنة ثابتة لا تختلف باختلاف الأمم ولا تتبدل بتبدل الأجيال كسنته تعالى في الخلق والإيجاد وتقدير الأرزاق وتحديد الآجال ...

فعلينا أن نرجع إلى قلوبنا ونمتحن مداركنا ونهذب أخلاقنا ، ونلاحظ مسالك سيرنا، لنعلم هل نحن على سيرة من سبقونا بالإيمان ، وهل نحن نقتفي أثر السلف الصالح لنكون على بينة من أمرنا.

---

[١] سورة النحل الآية ١١٢
[٢] سورة سبأ الآيات ١٥- ١٧
[٣] تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور ١٦٩/٢ وما بعدها باختصار .
[٤] سورة العنكبوت الآية ٤٠

٢- كذلك من مظاهر الشقاء الدنيوية : **زوال النعم وحلول النقم**

قال تعالى: ﴿ وَأَلَّوْ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا ۞ لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴾ [١].

يقول الأستاذ/ **سيد قطب**: " يقول سبحانه إنه كان من مقالة الجن عنا : ما فحواه أن الناس لو استقاموا على الطريقة ، لأسقيناهم نحن ماءً موفوراً نغدقه عليهم ، فيفيض عليهم بالرزق والرخاء ... ﴿ لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ﴾ ... ونبتليهم أيشكرون أم يكفرون ، ثم يبين – رحمه الله تعالى – أن من الحقائق الهامة التى تؤكدها هذه الآية الارتباط بين استقامة الأمم والجماعات على الطريقة الواحدة الواصلة إلى الله تعالى ، وبين إغداق الرخاء وأسبابه ، وأول أسبابه توافر الماء واغدوداقه"[٢].

تعهَّد الله للمستقيمين بأن يكون وليَّهم فى الدنيا والآخرة، يرعى شؤونهم، ويتعهد مصالحهم، ويقضى حوائجهم، ويسهِّل مقاصدهم، ويحقق مآربهم، ويكون لهم نعم المساعد والمعين، يكون أعينهم التى يبصرون بها، وآذانهم التى يسمعون بها، وأيديهم التى يبطشون بها، وأرجلهم التى يمشون بها، وعقولهم التى يفكرون بها، وهل يفشل فى الحياة من يكون وليه رب العالمين وأحكم الحاكمين ؟! حاشا وكلاَّ!!

قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُواْ وَاتَّقَوْاْ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ۞ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيهِم مِّن رَّبِّهِمْ لأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاء مَا يَعْمَلُونَ ﴾[٣]

يقول **الإمام الرازى**: "فاعلم أن اليهود لما أصروا على تكذيب سيدنا محمد ﷺ أصابهم القحط والشدة ، وبلغوا إلى حيث قالوا كما حكى القرآن الكريم : ﴿ يَدُ اللّهِ مَغْلُولَةٌ ﴾[٤]

فالله تعالى بين أنهم لو تركوا ذلك الكفر لانقلب الأمر، وحصل الخصب والسعة"[٥].

إن تدهور الأخلاق، وضعف سلطان الدين على النفوس، حتى لم يعد له التأثير الكافى على القلوب، فأصبحت خربةً إلاَّ من التفكير فيما يغضب الله ويرضى الشيطان، كان عاملاً هاماً فعَّالاً فيما يصيب الناس من مِحَن وإحَن ، وما يحل بهم من بلايا ورزايا، وما ينزل بهم من نكبات وأزمات!

---

[١] سورة الجن الآيتان ١٦-١٧

[٢] فى ظلال القرآن ٦/٣٧٣٤ بتصرف.

[٣] سورة المائدة الآيتان ٦٥-٦٦

[٤] سورة المائدة الآية ٦٤

[٥] تفسير الرازى ٦/٨٧

ولهذا فقد دعا كل نبى من الأنبياء قومه أن يلوذوا بالإستغفار عما قد تورطوا فيه يقول ﷻ على لسان سيدنا هود عليه السلام : ﴿ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلاَ تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ ﴾[١].

يقول الشيخ/**سيد قطب** معلقاً على هذه الآية الكريمة: "وننظر فى هذا الوعد (أى الذى وعد به هود قومه) وهو يتعلق بإدرار المطر ومضاعفة القوة ، وهى أمور تجرى فيها سنة الله وفق قوانين ثابتة فى نظام هذا الوجود، من صنع الله ومشيئته بطبيعة الحال، فما علاقة الإستغفار بها وما علاقة التوبة؟ فأما زيادة القوة فالأمر فيها قريب ميسور بل واقع مشهود ، فإن نظافة القلب والعمل الصالح فى الأرض يزيدان التائبين العاملين قوة وصحة فى الجسم بالإعتدال والإقتصار على الطيبات من الرزق وراحة الضمير وهدوء الأعصاب والإطمئنان إلى الله والثقة برحمته فى كل آن ، ويزيدانهم صحة فى المجتمع بسيادة شريعة الله الصالحة التى تطلق الناس أحراراً كراماً لا يدينون بغير الله على قدم المساواة بينهم"[٢].

وهاهو نبينا محمد ﷺ يدعونا إلى الرجوع إلى الله تعالى قبل أن يحلَّ بنا عذاب لا قِبلَ لنا بتحمله ، وتنزل بنا مصائب ليس لها من دون الله من واق!

قال تعالى: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾[٣]

يقول العلامة **أبو السعود** فى تفسيره للآية الكريمة: "والمتاع اسم لما يُتمتع به من منافع الدنيا من الأموال والبنين وغير ذلك ، والمعنى يعيشكم عيشاً مرضياً لا يفوتكم فيه شىء مما تشتهون ولا ينقصه شىء من المكدرات"[٤].

فقد وعد الله سبحانه المستقيمين بحياة هادئة هانئة، وعيشة صافية راضية ودرجات كبيرة عالية، وسعادة من شوائب المكدِّرات خالية، وهذا غاية ما يصبوا إليه الإنسان، ونهاية ما تطمح إليه النفس الكبيرة، وينشده العقل الراجح والذوق السليم.

فإذا كان هذا حال المستقيم، فما بالُنا تركنا الإستقامة ، وركنَّا إلى الإعوجاج والهذيان ؟ وأقبلنا على وساوس الشيطان ؟ بارتكاب الفجور والفسوق والعصيان ؟ وجرينا وراء الهوى ، وما تسوله النفس الأمارة بالسوء ؟ حتى وقعنا فى الخزى والخذلان ، وسقطنا فى حضيض الذل

---

[١] سورة هود الآية ٥٢
[٢] تفسير الظلال ١٨٩٧/٤ بتصرف يسير
[٣] سورة هود الآية ٣
[٤] تفسير أبى السعود ٣ / ٤، ٥

والهوان، ورجعنا بالضياع والحرمان، وظلمنا أنفسنا، وجهلنا مصيرنا، وعاقبة المخالفة والعصيان، فلا حول ولا قوة إلاَّ بالله العليِّ العظيم !! فإن حالنا لا تُرضى، وإن ما نحن عليه الآن لا يُعيد ولا يُبدى.

ولقد أرشدنا سبحانه وتعالى إلى أن الأمم ما سقطت من عرش عزها ولا بادت ومحى اسمها إلاَّ بعد نكوبها عن تلك السنن التى سنها الله تعالى على أسس من الحكمة البالغة ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[١] من نور العقل وصحة الفكر وإشراق البصيرة والإعتبار بأفعال الله فى الأمم السابقة والتدبر فى أحوال الذين حادوا عن صراط الله ﷻ وحل بهم الدمار.

يقول **الإمام الرازى** فى تفسيره: معنى الآية أنه تعالى أنعم عليهم بالعقل والقدرة وإزالة الموانع وتسهيل السبل ، والمقصود أن يُشغلوا بالعبادة والشكر ويعدلوا عن الكفر فإذا صرفوا هذه الاحوال إلى الفسق والكفر ، فقد غيروا نعمة الله تعالى على أنفسهم ، فلا جَرمَ استحقوا تبديل النعم بالنقم والمنح بالمحن ، وهذا من آكد ما يدل على أنه تعالى لا يبتدىء أحداً بالعذاب والمضرة والذى يفعله لا يكون إلاَّ جزاءاً على معاصٍ سلفت"[٢]

فمن عدله تعالى وحكمته أنه لم يكن من شأنه ولا من مقتضى سنته أن يغير نعمة ما أنعمها على قوم حتى يغيروا هم ما بأنفسهم من الأحوال التى استحقوا بها تلك النعمة، فأثبت لهم أن نعم الله تعالى على الأمم والأقوام منوطة ابتداء ودواماً بأخلاق وصفات وعقائد وعوائد تقتضيها تثبت تلك النعم بثباتها ، ولم يكن الله لينتزعها منهم بغير تغيير وظلم منهم ، فإذا ماغيروا غير الله عندئذٍ ما بأنفسهم وسلب نعمته منهم فصار الغنى فقيراً والعزيز ذليلاً والقوى ضعيفاً ، وهذا هو الأصل المطرد فى الأقوام والأمم وتلك آيات الكتاب الحكيم تهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم ولا يرتاب فيها إلاَّ الضالون فالله تعالى هو الصادق فى وعده ووعيده لم يأت بشىء عبثاً وما هدانا إلاَّ سبيل الرشاد ولا تبديل لآياته ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[٣].

فالله ﷻ يطالبنا بأن ننصره على نفوسنا لنكون أهلاً لكى ينصرنا على أعدائنا، ويمكِّن لنا فى الارض ، ويأمرنا بأن نبدأ وأن نعمل وأن نحاول الإندفاع فى سبيل الرقى والخير والرفعة فلا تلبث أن تحل بركة الله تعالى فى كل عمل جليل يهدف لإسعاد المجتمع الإسلامى.

---

[١] سورة الأنفال الآية ٥٣
[٢] تفسير الرازى ٥١٧/٧
[٣] سورة الرعد الآية ١١

يقول الأمير **شكيب أرسلان:** "فلما كان المسلمون قد غيروا ما بأنفسهم كان من العجب أن لا يغير الله ما بهم، وأن لا يبدلهم الذل والضعة ، من ذلك العز وتلك الرفعة بل كان ذلك يُعَدُّ منافياً للعدل الإلهى، والله ﷻ هو العدل المحض.

كيف ترى فى أمة ينصرها الله بدون عمل ويفيض عليها الخيرات التى كان يفيضها على آبائها ، وهى قد قعدت عن جميع العزائم التى قد كان يقوم بها آباؤها ؟ وذلك يكون أيضاً مخالفاً الإلهية والله هو العزيز الحكيم"[١].

"ومن المقرر الذى لا خلاف عليه أن تغيير الأنفس ليس بالأمر الهين، إنه ليس تغيير ملبس أو زى بآخر، إن معناه تغيير الإنسان ذاته من حال إلى حال تغيير وجهته وأفكاره ومشاعره وأهدافه وطرائقه وهذا هو التغيير الحقيقى، لانه تغيير ينفذ إلى الروح والجوهر، هذا التغيير النفسى لا يتم إلاَّ بوسيلة واحدة هى الإيمان، الإيمان الذى صنع من قبائل العرب المتفرقة الممزقة من قبل خير أمة أخرجت للناس، وبعثهم فى أنحاء الأرض ينشرون الحق ، ويدعون إلى الخير، ويخرجون الناس من عبادة الخلق إلى عبادة الله وحده ومن ضيق العيش إلى سعة الحياة ، ومن جورالأديان والظلام إلىعدل الإسلام"[٢].

يقول الإمام **ابن القيم:** "ومن عقوبات الذنوب أنها تزيل النعم وتحل النقم فما زالت عن العبد نعمة إلاَّ بذنب ولا حلت به نقمة إلاَّ بذنب كما قال على ابن أبى طالب : ما نزل بلاء إلاَّ بذنب ولا رفع إلاَّ بتوبة ، وقد قال تعالى : ﴿ **وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ**﴾ [٣] وقال تعالى أيضاً:﴿ **ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ** ﴾[٤].

فأخبر سبحانه أنه لا يغير نعمة أنعم بها على أحد حتى يكون هو الذى يغير ما بنفسه، ويغير طاعة الله بمعصيته، وشكره بكفره، وأسباب رضاه بأسباب سخطه فإذا غَيَّر غُيِّر عليه، جزاءً وفاقاً، وما ربك بظلام للعبيد، فإن غير المعصية بالطاعة، غير الله عليه العقوبة بالعافية،

---

[١] لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم ؟ تأليف الأمير شكيب أرسلان صـ٤٣ مراجعة الشيخ /حسن تميم مكتبة الحياة – بيروت – لبنان .

[٢] الحل الإسلامى ضرورة وفريضة للدكتور يوسف القرضاوى صـ١٨ ،١٩ الناشر مكتبة وهبه الطبعة الثالثة ١٣٩٧هـ – ١٩٧٧م.

[٣] سورة الشورى الآية ٣٠

[٤] سورة الأنفال الآية ٥٣

والذل بالعز. وقال تعالى:﴿ إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلاَ مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ ﴾[١].

ولقد أحسن من قال :

"إذا كنت فى نعمة فارعها ⁂ فإن الذنوب تزيل النعم
وَحُطْهَا بطاعة رب العباد ⁂ فرب العباد سريع النقم
وإياك والظلم مهما استطعت ⁂ فظلم العباد شديد الوخم
وسافر بقلبك بين الورى ⁂ لتبصر آثار من قد ظلم
فتلك مساكنهم بعدهم ⁂ شهود عليهم ولا تتهم
وما كان شىء عليهم أضر ⁂ من الظلم وهو الذى قد قصم
فكم تركوا من جنات ومن ⁂ قصور وأخرى عليهم أطم
صلوا بالجحيم وفاتوا بالنعيم ⁂ وكان الذى سألناهم كالحلم "[٢]

وبعد: "فإن صلاح الجماعات والشعوب لا يجىء جزافاً ولا يتحقق عفواً، كما أن الأمم لا تنهض من كبوة، ولا تقوى من ضعف، ولا ترتقى من هبوط، إلاَّ بعد تربية أصيلة حقة ، وإن شئت فقل: بعد تغير نفس عميق الجذور، لا يُحوِّل الهمود فيها إلى حركة، والغفوة إلى صحوة، والركود إلى يقظة، والفتور إلى عزيمة والعقم إلى انتاج، والموت إلى حياة، تغير فى عالم النفس أشبه ما يكون "بثورة أو انقلاب" فى عالم المادة، تغير يُحوِّل الوجهة والأخلاق، والميول والعادات، تغير نفسى لابد أن يُصاحب كل حركة أو نهضة أو ثورة سياسية أو اجتماعية، ومن غيره تكون النهضة أو الثورة حبراً على ورق، أو أجوف يتبدد فى الهواء"[٣].

٣- وأيضاً من مظاهر الشقاء الدنيوية على البدن: **ظهور الأوجاع التى لم تكن فى السابقين**

قال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلاَّ أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾ .[٤]

يقول الإمام **ابن كثير**: "يقول الله تعالى مخبراً عما اختبر به الأمم الماضية الذين أرسل إليهم الأنبياء بالبأساء والضراء: يعنى بالبأساء ما يصيبهم فى أبدانهم من أمراض وأسقام، والضراء ما يصيبهم من فقر وحاجة ونحو ذلك﴿ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾ أى يدعون ويخشعون

---

[١] سورة الرعد الآية ١١
[٢] الجواب الكافى صـ٧٤ ، ٧٥
[٣] الإيمان والحياة للقرضاوى صـ٣٠٦
[٤] سورة الأعراف الآية ٩٤

ويبتهلون إلى الله تعالى فى كشف ما نزل بهم، وتقدير الكلام أنه ابتلاهم بالشدة ليتضرعوا فما فعلوا شيئاً من الذى أراد منهم فقلب عليهم الحال إلى الرخاء ليختبرهم فيه"[١].

ونظير هذه الآية فى تقرير المعنى قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ [٢]. "والمراد بالضراء كما يقول أكثر أئمة التفسير اعتلال الأبدان"[٣].

وعن عبد الله بن عمر قال: أقبل علينا رسول الله ﷺ فقال: (يامعشر المهاجرين خمس إذا ابتليتم بهن– وأعوذ بالله أن تدركوهن– لم تظهر الفاحشة فى قوم لوط حتى يعلنوا بها إلاَّ فشا فيهم الطاعون والأوجاع التى لم تكن مضت فى أسلافهم الذين مضوا ولم ينقصوا المكيال والميزان إلاَّ أخذوا بالسنين وشدة المئونة وجور السلطان عليهم ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلاَّ منعوا القطر من السماء ولولا البهائم لم يمطروا ولم ينقصوا عهد الله وعهد رسوله إلاَّ سلط الله عليهم عدواً من غيرهم فأخذوا بعض ما فى أيديهم ومالم تحكم أئمتهم بكتاب الله ويتخيروا مما أنزل الله إلاَّ جعل الله بأسهم بينهم) [٤].

فمما يؤلم النفس ويقرح القلب أن عوامل فساد المجتمع تكثر وأن فسادها يكاد يسد الأفق، هذه العوامل تكاثرت على جسم المجتمع فأقعدته وملأته أمراضاً وهددت كيانه وكادت تقضى على البقية الباقية من رسمه البالى، فأصبح المجتمع رسماً مميلاً وهيكلاً هشاً ومن هذه العوامل الهادمة التى طغت على المجتمع وبغت على أصوله **تناول المخدرات**.

فمن مبادىء الإسلام وتعاليمه الحكيمة أنه عنى بصيانة العقول وحفظ الصحة العامة وبين لنا أن سلامة العقول وقوة الأبدان طريق إلى صحة الأديان وأن العقل السليم فى الجسم السليم، وأن الأمة إذا قويت أبدانها وتوفرت صحتها فتح تفكيرها ونضج عقلها، وأن الخبل العقلى والخلل الفكرى ينتاب الأمم إذا هزلت أجسامها وضعفت أبدانها وانهارت صحتها .

لهذا حرم الإسلام الخمر وحرّم كل مسكر وحرّم كل مخدر وحرّم كل مفتر فى شتى صوره وتحت مختلف أسمائه، من خمر يشرب أو حشيش يحرق أو أفيون يؤكل إلى غير ذلك من أنواع المسكرات والمخدرات فالجميع وإن اختلفت أسماؤها فالكل هم وغم وبلاء وشقاء.

---

[١] تفسير ابن كثير ٢/٢٣٣

[٢] سورة الأنعام الآية ٤٢.

[٣] تفسير القرطبى ٣/٢٧٣ بتصرف.

[٤] هذا جزء من حديث رواه الحاكم ، كتاب الفتن والملاحم ، باب ذكر خمس بلاء أعاذ النبى منها للمسلمين ، ورواه ابن ماجه فىسننه ٤٠١٩ ، وأبو نعيم فى حلية الأولياء ٣/٣٢٠ ، وصححه الألبانى فى السلسلة الصحيحة ١٠٦

ففى الآونة الأخيرة نشطت أسواق الخمر والمخدرات، وانتشرت منافذ السموم والعقاقير المخدرة، وراجت تجارة المخدرات، وكثر تعاطيها خصوصاً بين الشباب الذين هم عدة الأمة، ومستقبلها الذى ترجوه، وكثرت الضحايا نتيجة هذه السموم المدمرة التى خربت العقول، ودمرت النفوس، وأزهقت الأرواح وسرى ضررها وخطرها فى المجتمع سريان النار فى الهشيم.

إنها تسيطرت علينا فى كل ناحية وتسلطت تسلطاً لا هوادة فيه وأوشكنا على الإنهيار الخلقى والعقلى والبدنى، وها نحن نسير فى طريق الفناء فعسى أن يتداركنا الله تعالى بلطفه.

يقول د/ **ناصر العمر**: "إن كثيراً من الناس يتوهم أن السعادة تجتلب بمعاقرة المخدرات والمسكرات فيقبلون عليها، قاصدين الهروب من هموم الدنيا ومشاغلها وأتراحها، وإذا بهم يجدون أنفسهم كالمستجير من الرمضاء بالنار، لأن المخدرات فى الحقيقة من الحوائل دون السعادة، وأنها تجلب الشقاء والبأس والإنحلال والدمار، دمار للفرد والمجتمع والأمة، وإن لنا فى الواقع الحاضر خير شاهد على ذلك فليعتبر أولوا الألباب"[١].

فالمخدرات من أولى مهامها أن تجعل متعاطيها يحيا حياة هى دون مستوى الحياة الإنسانية المهذبة الكريمة، فيتسلط عليه الجانب الحيوانى على الجانب العقلى والروحى الكامن فى أعماقه، وهى فوق هذا تهبط بقواه العقلية إلى مستوى لا يرتضيه لنفسه إنسان يريد أن يعيش موقراً بين أقرانه، مكرماً بين أنداده.

"هذا ولقد ذكر علماء الطب أن المخدرات من أعظم الأخطار التى تهدد النوع الإنسانى، لا بما تورثه مباشرة من الأضرار السامة، بل بعواقبها الوخيمة أيضاً، إذ أنها تمهد السبيل لخطر لا يقل ضرراً عنها ألا وهو السل، والخمر توهن البدن وتجعله أقل مقاومة لكثير من الأمراض، وهى تؤثر فى جميع أجهزة البدن وخاصة الكبد، وهى شديدة الفتك بالمجموعة العصبية"[٢].

"وهذا غير ما تُحدثه من فتور فى الجسد، وخدر فى الأعصاب، وهبوط فى الصحة وفوق ذلك ما تُحدثه من خور النفس، وتميع الخلق، وتحلل الإرادة، وضعف الشعور بالواجب، مما يجعل هؤلاء المدمنين لتلك السموم أعضاء غير صالحة فى جسم المجتمع.

فضلاً عما وراء ذلك كله من إتلاف للمال، وخراب للبيوت، بما يُنفق على تلك المواد من أموال طائلة، ربما دفعها المدمن من قوت أولاده، وربما انحراف إلى طريق غير شريف يجلب منه ثمنها.

---

(١) السعادة بين الوهم والحقيقة صـ٣٣ ، ٣٤

(٢) فقه السنة للشيخ / سيد سابق ٣٧٧/٢ بتصرف ، ط الفتح للإعلام العربى الطبعة العاشرة ١٤١٤ هـ - ١٩٩٣م.

وبحق ما قال أحد الباحثين: إن الإنسان لم يصب بضربة أشد من ضربة المخدرات، ولو عُمل إحصاء عام عمن فى مستشفيات العالم من المصابين بالجنون والامراض العضال بسبب المخدر، وعمن انتحر أو قتل غيره بسبب الخمر، وعمن يشكون فى العالم من آلام عصبية ومعدية ومعوية بسبب الخمر، وعمن أورد نفسه موارد الإفلاس بسبب المسكر، وعمن تجرد من أملاكه بيعاً أو غشاً بسبب المخدرات، لو عمل إحصاء بذلك أو ببعضه لبلغ حداً هائلاً نجد كل نصح بإزائه صغيراً"[1].

وقد آمن كثير من الحكومات بأضرار المخدرات على الأفراد والأسر والأوطان ومنهم من حاولوا أن يمنعوها بقوة القانون والسلطان– كأمريكا– ففشلوا.

يقول الدكتور/ **القرضاوى**: "ولكى يتضح لنا أثر الإيمان فى تغيير العادات المتمكنة، وتربية النفوس على عمل الخير وإن كان شاقاً، وترك الشر وإن كان مألوفاً ومعتاداً، نُقيم موازنة بين موقفين فى مشكلة واحدة: موقف من التاريخ الحديث، وموقف من التاريخ القديم، يُصوِّران لنا كيف يصنع وازع الإيمان ما يعجز عنه وازع السلطان.

الموقف الأول فى الولايات المتحدة الأمريكية.. وقد انتشرت فيها عادة السُكْر وشرب الخمور انتشاراً أقنع الحكومة بضرر ذلك على الفرد والأسرة والمجتمع، فأصدرت الحكومة قانوناً يمنع الخمر، ثم تَبيَّن لها بعد مدة يسيرة أنها عاجزة تمام العجز عن تنفيذ قانونها، وأن افراداً وجماعات أخذوا يعبثون فى الأرض فساداً بتعاطى الخمور وتهريبها والإتجار فيها، والتفنن فى صناعتها على استخفاء، واستحضار أخبث أنواعها من ذى قبل.

ومما ينبغى أن نلتفت إليه أن هذا الحظر لم يكن أمراً ملكياً أو منشوراً من إمبراطور مستبد أراد أن يُرغم شعبه بسلطان القوة ، وقوة السلطان كلا... إنه تشريع جاء عن طريق برلمان فى بلد ديمقراطى دستورى حر، من شأنه أن يُشرِّع لنفسه ما يجلب له النفع، ويدرأ عنه الفساد والضرر، وقد شرَّع هذا القانون بعد أن اقتنع به الرأى العام وتحقق له من الوجهه العلمية والعملية أن الخمر ضارة بالصحة، مُفسدة للعقل، محطمة للحضارة.

وقد أعدت لتنفيذ هذا التحريم داخل الأراضى الأمريكية كافة وسائل الدولة وإمكاناتها الضخمة:

١- جُنِّدَ الأسطول كله لمراقبة الشواطىء، منعاً للتهريب.

٢- جُنِّدَ الطيران لمراقبة الجو.

---

[1] الحلال والحرام فى الإسلام للدكتور / يوسف القرضاوى صـ ٧٠، ٧٧ ط مكتبة وهبه الطبعة السابعة عشر ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م.

٣- شُغِلت أجهزة الحكومة واستخدمت كل وسائل الدعاية والإعلام لمحاربة الخمر وبيان مضارها، وجُنِّدَت كذلك المجلات والصحف والكتب والنشرات والصور والسنيما والأحاديث والمحاضرات وغيرها.

ويقدِّرون ما أنفقته الدولة فى الدعاية ضد الخمر بما يزيد على ستين مليوناً من الدولارات، ولكن كل ذلك لم يزد الأمة الأمريكية إلاَّ غراماً بالخمر، وعناداً فى تعاطيها، حتى اضطرت الحكومة سنة ١٩٣٣م إلى إلغاء هذا القانون، وإباحة الخمر إباحة مطلقة"[١].

هذه هى نهاية المطاف، لقد فشل القانون، وعجزت السلطات، وأفلست أجهزت الدولة فى منع الخمر ومحاربة السِكِّرين، برغم الإقتناع العقلى الذى كان سائداً فى الامة بضرر الخمر، ولكن الإقتناع العقلى شيء وعمل الإرادة شيء آخر.

ولا شك أن هذه الدول وغيرها من الدول وغيرها من الدول التى تترك لمواطنيها الحبل على الغارب فى شأن المسكرات، أنها تقف فى الجهة العليا من المنحدر الخطر... وهى إن عاجلاً أو آجلاً ستهوى إلى القاع، مع ما شيدته بسبب هذا المرض الخطير، الذى يسرى فى كيان هذه الدول دون أن تهتم بمعالجته، بالرغم من نداء المصلحين ورجال الطب فيها، وتكوينهم للكثير من الجمعيات المناهضة للمُسكرات منذ زمن بعيد"[٢].

إذا كان هذا هو الحال فى تلكم الامم ، أفلا يجدر بنا ونحن مسلمون ديننا الإسلام، وشعارنا القرآن الكريم، الذى حرَّم علينا الخمر فى صراحة وجلاء، وتكفَّل بشرح مضارها الدينية والدنيوية، أن نتعاون على محاربة هذا الداء الوبيل، ونعمل على استئصال شأفته من بلاد دينها الإسلام وتؤمن بالقرآن؟!

وأيضاً من أكبر عوامل الفساد التى سرت فى أوصال المجتمع فأفسدت أمره وجعلته متداعى الأركان **الزنا**.

الذى شدد الله تعالى النكير على مرتكبيه، ووصفه بأنه فاحشة وبئس الطريق، طريق الحسرة والندامة طريق الخيبة والسامة، طريق من سلكه كان من الأخسرين.

كيف لا؟ ومن المحقق أنه خسارة كبرى: مادية وأدبية، جسمية وخُلقية، فردية واجتماعية، وهل هناك أكبر خسارة من هذه فى العالمين؟

"وذلك لما فيه من ضياع النسل واختلاط النسب ولحوق العار بالمزنى بها، وبأهلها وتعريض ولدها للقتل- غالباً- خشية لصوق العار، وتفشى الأمراض الخبيثة وانتشارها فى

---

[١] الإيمان والحياة للقرضاوى صـ٢١٧ ، ٢١٨

[٢] لماذا حرم الله هذه الأشياء لحم الخنزير ، الميتة ، الزنا ، اللواط ، الشذوذ الجنسى ، الخمر ؟ نظرة طبية فى المحرمات القرآنية للدكتور / محمد كمال عبد العزيز صـ٥١ ، ط مكتبة القرآن – بدون

المجتمع، فإن المزنى بها عرضة لأن يطأها الصحيح والمريض، فتسبب بذلك فى نقل عدوى المرض من المريض إلى الصحيح مما يؤدى إلى انتشار المرض وتفشيه فى المجتمع والنقص من قدرته، وإنتاجه والسير به إلى الهوان والضياع، كما يؤدى إلى ابتزاز أموال الزانى وهلاكها فى سبيل الوصول إلى تحقيق مقصوده، وإشباع لذته المحرمة"[١].

"ثم إذا نظرنا إلى الأضرار الصحية التى تترتب على فاحشة الزنا من أمراض الزهرى والسيلان، وغيرهما مما أثبته الطب من مضار الزنا، وأفردت له كتب مؤلفة فى هذا الشأن أدركنا حكمة تشديد الشرع فى تحريمه"[٢].

فالزنا غاية الإفراط ومنتهى التفريط تنتشر بواسطته الأمراض الفتّاكة، التى تُعى الأطباء، وتُؤدى بالخَلق والخُلق إلى أسفل سافلين!

"ولقد كان الزنا بهذه الكيفية من الفحش والقبح لما فيه من المفاسد الكثيرة التى منها:ـ

١- المعصية التى توجب الحد على الزانى والزانية جلداً كان الحد أو رجماً حتى الموت مع حصول الفضيحة لهما عند إقامة الحد عليهما أمام الناس، قال تعالى: ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾[٣].

٢- اختلاط الأنساب واشتباهها، وإذا اشتبه المرء فى الولد الذى أتت به الزانية أمنه هو أم من غيره ؟ فإنه لا يقوم بتربيته ولا يستمر فى تعهده ، وذلك مما يترتب عليه إضاعة النسل وخراب العالم.

٣-هيجان الفتن وفتح باب الهرج والمرج والاضطراب بين الناس دفاعاً عن العرض، فكم سمعنا بحوادث قتل كان مبعثها الإقدام على الزنى.

إن المرأة إذا عرفت بالزنى استقذرها كل ذى طبع سليم، فلا تحدث ألفة بينها وبين زوجها ولا يتم السكن والإزدواج الذى جعله الله مودة ورحمة بين الناس بقوله تعالى:﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾[٤]

---

[١] الجناية على الأبدان وموجبها فى الفقه الإسلامى صـ١١ بتصرف للدكتور / المرسى عبد العزيز السماحى ، الناشر عالم الفكر فى ميدان الحسين ﷺ ١٤٠٦ هـ- ١٩٨٦م.

[٢] الفقه على المذاهب الأربعة للإمام عبد الرحمن الجزيرى ٥/٥٢ بتصرف ط دار الريان للتراث – القاهرة – الطبعة الاولى ١٤٠٨هـ – ١٩٨٧م.

[٣] سورة النور الآية ٢

[٤] سورة الروم الآية ٢١

٤- إذا انفتح باب الزنا فحينئذٍ لا يبقى لرجل اختصاص بامرأة، وكل رجل يمكنه أن يقع على كل امرأة أرادت الزنى ورغبت فيه، وحينئذٍ لا يبقى بين نوع الإنسان وسائر الحيوان فرق.
٥- انتشار كثير من الأمراض الخبيثة كالسل والزهرى والسيلان التى لا يسلم منها الزناة، والعياذ بالله تعالى"[١].

هذا بالرغم من ظهور ذلك الوباء الذى أصبح حديث العالَم ومشغلة الأوساط الطبية والعلمية، وهو ذلك المرض الذى يُفقد صاحبه المناعة، ويجعله فريسة سهلة لأى "ميكروب" أو "فيروس" يفتك به، دون أن يجد من داخل الجسم الجند الطبيعى للمقاومة فقد قضى التحلل والشذوذ وانتشار الفاحشة- ظاهرة وباطنة- على هذا الجند الذى جهَّز الله به كيان الإنسان إنه المرض العضال الذى أعياهم دواؤه، وهو ما يعبر عنه الإنجليز بـ "الإيدز" والفرنسيون بـ "السيدا".

يقول الشيخ/ **محمد فريد:** "ومن هذه الأمراض التى ظهرت فى عهد قريب ولم تكن فى الماضيين ما يسمى بـ (الإيدز) ومعناه انهيار وسائل الدفاع الطبيعية وقد اكتُشفت أول إصابة بهذا المرض سنة ١٩٧٩م فى مدينة نيويورك الأمريكية، عند رجل شاذ جنسياً، ثم تتابعت الإصابات .....

وتشير الإحصائيات أن ٤٨ بالمائة يموتون خلال السنة الأولى من المرض و٧٥بالمائة خلال السنة الثانية، ٩٢ بالمائة خلال السنة الثالثة. وتشير الإحصائيات كذلك إلى زيادة نسبة الإصابة زيادة مزهلة فبينما كانوا عام ١٩٨١م (٢٥٢) مريضاً فى الولايات المتحدة تضاعف هذا الرقم إلى أكثر من عشرة أضعافه عام١٩٨٣ م إذ بلغ عددهم ٢٦٤٣ مريضاً وفى بداية ١٩٨٥م بلغ عددهم عشرة آلاف وتقول الإحصائيات كذلك أن ٧٤% من المصابين ممن يقارف الزنا والشذوذ، و١٧% من مدمنى المخدرات أى أن ٩٢- ٩٥ % من مجموعة الحالات من أهل هذه المعاصى (الشذوذ، والزنا، والإدمان) نعوذ بالله من الخذلان".[٢] [٣]

وما زلنا نقرأ عن انتشار الشذوذ الجنسى إلى حد مهزلة او مأساة "زواج الرجال بالرجال" أو "زواج النساء بالنساء"، وأن بعض الكنائس باركت ذلك ، وأن بعض القسس قام بمباركة هذه العقود الدنسة!

---

[١] الضياء فى تفسير سورة الإسراء للدكتور / سعيد عرام صـ٢٠٤ ط الثانية.
[٢] تحذير الدانى والقاصى صـ٦٣ باختصار.
[٣] يراجع هذه الإحصائيات فى كتاب غضب الله تعالى يلاحق المتمردين على الفطرة ، لفؤاد السيد عبد الرحمن ، ط مكتبة الصحابة – بدون.

فهذا العمل الخبيث انتكاس فى الفطرة، وانغماس فى حمأة القذارة، وإفساد للرجولة، وجناية على حق الأنوثة.

وكما وقع هذا التعدى من قوم لوط قديماً، وقع حديثاً وبتبجح فى هذا المرسوم الذى أصدره مجلس الكنائس لإنجليزية بإباحة الشذوذ الجنسى بين البالغين، وجاء فيه" وافق مجلس الكنائس الإنجليزية بعد مناقشات حامية على التوصية التى كانت قد تقدمت بها إحدى اللجان الحكومية باعتبار الشذوذ الجنسى الذى يحدث بين البالغين ورضاهم عملاً مشروعاً، لا يعاقب عليه القانون وكان كبير أساقفة "كانتربرى" "جوفرى فيشر" هو الذى قاد الحملة لتأييد هذه التوصية، التى تمت الموافقة عليها فى مجلس الكنائس بأغلبية ١٥٥ صوتاً فى مقابل ١٣٨ صوتاً"[١].

يقول د/ **حسن المعايرجى:** "إن حالة من الذعر تنتاب الولايات المتحدة الامريكية نتيجة هذا المرض الفتاك الذى نشب فى أوساط الشواذ بصورة وبائية منذ عام ١٩٨١م وقد سُمِّى هذا المرض AIDS وذلك اختصاراً لعدة كلمات بمعنى "إنهيار وسائل الدفاع الطبيعية فى الجسم" وهذا يقود إلى إصابات قاتلة بأنواع من السرطان مختلفة وعدوى بأمراض قاتلة لا يقدر الجسم على أن يدافع فيها عن نفسه لانهيار هذه الوسائل الطبيعية، ويشبه (لارى كرامر) حالة الذعر هذه بحالة سكان لندن أثناء القصف الألمانى فى الحرب العالمية الثانية، فهم لا يعرفون أين تسقط القنبلة التالية، وقد باءت جميع محاولات عزل العامل المسبب للإيدز بالفشل، ولم يقدر البحاث أن ينقلوا الإيدز للحيوانات بحقنهم بدماء المرضى كخطوة أولى منطقية"[٢].

ونذكر هنا نموذجاً للإنحلال الخُلُقى فى الغرب، وهو نموذج قديم يعتبر ما فيه محافظاً بالنسبة لما تطور إليه الحال، وهو ترجمة حرفية لما نشرته كل صحف بريطانيا اليومية فى إبريل سنة ١٩٦٤م، وهو موجز للتقرير الضخم الحافل بعجائب المغريات الذى أصدرته الهيئة الطبية فى كتيب تخطفته الأيدى فور صدوره فى لندن، وهذه الترجمة ننقلها عن مجلة "المسلمون".

---

(١) نظرات فى القرآن الكريم للشيخ محمد الغزالى صـ١٩٧ ، نقلاً عن جريدة الجمهورية القاهرية فى ١٩٧٥/١١/١٦م ، ط دار الكتب الحديثة ١٩٦٣ م هذا وقد نشرت جريدة صوت الازهر فى عددها التاسع والتسعين تحت عنون " بجاحة أمريكية " : التهديد بقطع المعونة بسبب محاكمة قوم لوط ، وفيه : هدد عدد من أعضاء الكونجرس الأمريكى بقطع المعونة الأمريكية المقدمة إلى مصر، حيث قالوا فى رسالتهم للرئيس الأمريكى "بما أننا من المساندين الأقوياء لتقديم المعونة إلى مصر ، فإننا نحتج على محاكمة المثليين ، ونعتقد بأن توجيه الإتخامات إلى رجال مارسوا الجنس بالتراضى موقف لا نستطيع السكوت عليه".

(٢) مجلة الأمة القطرية عدد ٢١ أبريل ١٩٨٣ صـ ٧٤ للدكتور / حسن المعايرجى.

قالت المجلة: "أصدرت الهيئة الطبية البريطانية، تقريراً موضوعه" الشباب والأمراض السرية "كانت قد عهدت بإعداده إلى لجنة تضم ممثلين للكنيسة، وباحثين اجتماعيين ونفسيين وأساتذة جامعيين، بالإضافة إلى بعض الأطباء، ذكرت فيه أن القنبلة والخوف من التحطيم المرتقب للبَشرية، من بين الأسباب التى دعت الشباب إلى اتخاذ اللَّذة مبدأ فى الحياة، لَّذة لا تحترم ديناً ولا علماً، ولا تُلقى بالاً لروابط الأسرة أو المسئوليات الإجتماعية، فشريعة اليوم هى البحث اليائس عن اللَّذة.

إن الشباب يودون أن يجمعوا كل أنواع اللَّذات الحسية التى تجود بها الحياة قبل فوات الأوان، والأدلة التى أدلى بها الشباب للباحثين الإجتماعيين والأطباء والبوليس وغيرهم من المهتمين بشئون الشباب، تدل على أن الصلات الجنسية قبل الزواج وخارج نطاق بيت الزوجية، أصبحت أمراً عادياً، وقد ذكر أحد الشهود بعد أن قام بدراسة خاصة لسلوك الشباب- ولا سيما الجامعيين منهم- أن شيوعية الجنس أصبحت مودة فى السنوات السبع الأخيرة.

يقول التقرير: إن نسبة زيادة الأمراض السرية أكبر بكثير من نسبة الزيادة فى عدد السكان، فما بين سنتى (١٩٥١-١٩٥٢) زاد عدد السكان بنسبة ٦% ، بينما زادت نسبة الأمراض التى تنتقل عن طريق الصلات الجنسية بنسبة ٦٣%، والأطفال غير الشرعيين زادوا من ٤,٦ % إلى ٦,٦ % فى انجلترا وويلز ما بين (١٩٥٥-١٩٦٦)، وأما فى لندن فالزيادة ٧,٧ % إلى ١٠,١٤ % ويُعزى سبب الزيادة إلى التغيير الكبير الذى طرأ على نظرة المجتمع للقيم الاخلاقية عامة، والمتصلة فيها بالجنس خاصة، ومن بين أسباب هذا التغيير تناقص أثر الدين، وفقدان الأمن فى الحياة الجديدة، وفشل التربية والتوجيه الأبوى، وقصور التربية الجنسية، وما دامت الفوضى الجنسية نذيراً بانهيار اجتماعى، فلابد من إعادة الإهتمام بالتربية المنزلية" والبلاد الأوروبية أسوأ من بريطانيا، وأمريكا كذلك[1].

وما زلنا نقرأ عن انتشار أفلام الجنس والمخدرات والسموم البيضاء بصورة أذهلت كل من يزور هذه البلاد حتى من الموالين للغرب فكراً واتجاهاً وتلك هى آفات الحضارة الغربية المعاصرة ، وآثارها فى حياة أصحابها كما تحدثت عنها الوقائع ، وكما تكلمت الأرقام ، وكما دلَّت الشواهد القاطعة.

وبعد: فما الأشكال البارزة من الإنحراف المرضى فى سلوك بعض شبابنا وتفكيرهم؟

---

[1] الإسلام حضارة الغد للدكتور يوسف القرضاوى صـ٣٤ ،٣٥ ط المدنى – مكتبة وهبه الطبعة الأولى ١٤١٦هـ- ١٩٩٥م نقلاً عن مجلة المسلمون التى كان يصدرها الداعية الإسلامى المعروف للدكتور سعيد رمضان العدد الثامن مايو ١٩٦٤م.

"هناك طائفة من الإنحرافات تكثر بين الأحداث فى مرحلة المراهقة والبلوغ أهمها النزوع إلى العدوان على الأموال والأنفس، والإستجابة للرغبات الجنسية والإستهتار بالآداب العامة فى حياة الجماعة، ومحاولة بعض الشباب الوصول إلى أهدافهم من طريق الغش وخيانة الأمانة، ومجاهرة بعض متعلمى الشباب بالمعصية، وبالتحلل من القيم الدينية، والإستسلام الأعمى للتفكير المادى، ومن هذه الإنحرافات ما يأخذ عند بعض الأفراد شكل العقوق للوطن والخيانة له، وتسخير أنفسهم لخدمة أعدائه، ومنها ما يؤدى بأصحابه إلى كره الحياة ومحاولة التخلص منها، ولا سيما بعد الإخفاق فى بلوغ هدف أو الإحساس بالعجز أمام الصعاب والعقبات.

هذه الطائفة من الإنحرافات تندرج تحتها ألوان من التصرف والتفكير الشاذ، فيها مخالفة لتعاليم الدين، وقواعد السلوك الأخلاقى من جهة، وفيها تعكير لأمن المجتمع وإهدار لقيمه من جهة أخرى، وهى تنبعث من مجموعة من العوامل النفسية والإجتماعية المتشابكة، ومن بين تلك العوامل طغيان بعض الغرائز الفردية وجموحها، وفى مقدمتها غرائز العدوان والسيطرة والتملك والجنس، وهى غرائز يشتد عنفوانها فى أوائل مرحلة الشباب، وإذا لم تتعهد بالتربية والتهذيب والتوجيه دفعت إلى الإعتداء على الأموال والأنفس والأعراض، واستتبعت عديداً من المنكرات والعادات الضارة، كالقمار وتعاطى المسكرات والمخدرات وإهمال المسئوليات، ولبعض تلك الغرائز كغريزة الجنس– خطرها– لا فى مرحلة الشباب فحسب، ولكن فيما يليها من مراحل العمر أيضاً، وهى تلعب دوراً كبيراً فى استقرار الحياة الأسرية أو اضطرابها ، وقد زادت الحياة الحديثة من تعقيد شئون هذه الغريزة بما جلبته معها من ألوان الحضارة وترفها ومغرياتها وفنونها ووسائل إعلامها، وانطلاق حياتها الإجتماعية، وفصلها بين تعاليم الدين وتوجيه الحياة اليومية لأفرادها ومجتمعاتها.

ومن سوء حظ الشرق الإسلامى أنه حين بدأ نهضته الحديثة وجد زحام العلم والفن والتقدم والسلطان السياسى فى يد الغرب، فاندفع فى تقليده، ولم تتح له الفرصة فى بعض الأحيان فى أن يفرق بين النافع والضار مما يقلده، وفى أن يزن تلك الأوضاع الجديدة بميزان دينه وتراثه وتقاليده الصالحة، وانعكس هذا على بعض الشباب المسلم فى سلوكه وتفكيره، وترك عند قلة منهم حالة من التردد واهتزاز الثقة بتراثهم وبالولاء له، وعند آخرين موقفاً من التحلل وعدم المبالاة.

فالتعاليم الروحية تحض على الحياء والحشمة والتصون والعفاف وغض البصر وحفظ الفرج ، وتدعو إلى إلتزام آداب وحدود معينة فى التزين واللباس ، وتحذر من كل ما من شأنه

إثارة الشهوة ، وتعريض الرجل والمرأة للفتنة ، وتضع العلاقات الجنسية فى مكانها الصحيح فى حياة الأسرة وإنجاب النسل والإشباع المشروع للغريزة.

ولكن الحياة الحديثة التى تحيط الآن بالشباب المسلم تحفل بالكثير من الظواهر التى لا تتفق وهذه التعاليم من اختلاط غير موجه ، وتبذل فى كشف مفاتن الأجسام، وألوان من الفن يغلب فيها استغلال الغرائز على الروح الفنية الجمالية، وتهاون من جانب المجتمع فى مقاومة ذلك التيار الجارف.

ومما يزيد الموقف سوءاً اضطراب أحوال الشباب الآن فى مختلف أنحاء العالم، وتفشى القلق والإستهتار والشذوذ وتعاطى المخدرات والشعور بالضياع، والميل إلى العنف والتدمير بين صفوفه، وانتشار هذا الروح بالعدوى وسهولة المواصلات من بلد إلى آخر، وفى كل يوم تنقل وسائل الإعلام أخبار هذه الظواهر المقلقة، وانزعاج المصلحين والحكام والمربين من تدهور روح النظام والإلتزام الخلقى بين شباب المدارس والجامعات، ونسجل نتائج الدراسات والإحصائيات التى يقوم بها العلماء على هذه الظاهرة.

وبين يدى- وأنا أعد هذا البحث- خبران تكررت الإشارة إلى مضمونهما فىالصحف: "أحدهما من واشنطون بالولايات المتحدة الأمريكية وفيه أن الرئيس الأمريكى دعا "الكونجرس" إلى اتخاذ إجراء ضد انتشار المخدرات فى أمريكا، ووصف هذا الخطر بأنه يشكل تهديداً قومياً خطيراً لصحة ملايين الأمريكين وسلامتهم، وحدد الأبعاد المزعجة لهذه المشكلة، فذكر أن عدد الشباب الذين اعتقلوا بسبب تعاطى المخدرات زاد ى سبع سنوات بنسبة ٨٠٠% ويضيف الخبر إلى هذا إحصاء عن الزيادة المذهلة فى عدد الجرائم التى ارتكبت فى واشنطون فى شهر مايو الماضى من قتل واغتصاب وسطو وسرقة "الأخبار ٦٩/٧/١٥".

والخبرالثانى: رسالة من " لندن " بعنوان " المجتمع البريطانى إلى أين ؟ بعد انتشار الجنس والمخدرات والعنف بين الشباب " وتقول الرسالة إن من أصعب ما يشغل أذهان الحكومة والمفكرين الإجتماعيين والمتخصصين النفسيين مشكلة المجتمع البريطانى الذى طرأت عليه فى خلال السنوات الأخيرة تغيرات خطيرة فقد أصبح مجتمعاً يسيطر عليه الجنس فى أفلام السنيما والتلفزيون وفى المسرح والكتب والمجلات وينتشر فيه الإنحراف الجنسى بين الفتيان والفتيات.

ليس هذا فحسب ولكن انتشار المخدرات أصبح أيضاً ظاهرة خطيرة تقلق بالآباء والأمهات والمسئولين فى الحكومة، بعد أن انتشر هذا المرض حتى بين تلميذات المدارس اللاتى لم يتجاوزن سن المراهقة بعد.

وثمة ظاهرة من أكثر الظواهر تهديداً للمجتمع الشباب البريطانى وهى ظاهرة العنف الذى يسود هذا المجتمع وينعكس على سلوك أفراده وبخاصة فى المجالات التى يتجمعون فيها كالمباريات الرياضية وغيرها ويذهب بعض الباحثين إلى إلقاء معظم المسئولية فى هذه الأمراض الإجتماعية على الآباء ، ذلك لأنهم أطلقوا العنان لأبنائهم وبناتهم خوفاً من أن يتهموا بالرجعية وعدم مجاراة المجتمع العصرى فى متطلباته "الأهرام ٦٩/٧/١٥"[١].

إن مثل هذه الإنحرافات التى تضمنها هذان الخبران تشاهد فى مجتمعات أخرى راقية معاصرة ، وتصل إلينا أنباؤها وأصداؤها فى الصحف والمجلات والأفلام والروايات، ومن الطبيعى أن يكون لها بعض التأثير الضار فى مجتمعاتنا وفى شبابنا سلوكاً وتفكيراً، وهى لا تصل إلينا فى أوطاننا فحسب ولكن طائفة من شبابنا المثقف يتعرضون لتأثيرها فى بيئاتها الأصلية، حين يذهبون لمواصلة دراساتهم فى مختلف جامعات الدول الراقية ومعاهدها، ويخالطون نظراءهم من شبابها، ويعيشون فى مجتمعاتها مدة تكفى لإحداث هزة أو تغيير فى قيمهم الفكرية والأخلاقية ثم يعودون وقد حمل بعضهم آثار تلك التغييرات ، فينقلها بدوره إلى الأفراد والجماعات فى بيئته القومية" .

وقصارى القول :

فهذه بوائق ومهلكات لا يحتملها الدين والخلق والوطن الكريم وإذا كنا نفزع عند حدوث الأوبئة إلى الأطباء ونهرع إلى الدواء للمحافظة على صحة الأجساد فيجب أن نفزع إلى حماية أرواحنا وصيانة أخلاقنا وليس ذلك بالحملات الوعظية فإن الوعظ يذهب مع الهواء والإرشاد يسير مع الريح، وإنما أقصد حملة قانونية عملية قوامها الحاكم وأساسها القدوة الحسنة من الرؤساء والتطهير العام عند ذوى الشأن.

ولو التزم الناس أحكام الإسلام وآدابه فى المأكل والمشرب، والنوم واليقظة، ونفذت أوامر الإسلام فى محاربة الخمر والميسر ، واللهو الحرام، والمتع الحرام، لاحتفظ المجتمع بصحة أبنائه، ووفرت الملايين التى تنفق على أم الخبائث والسموم المهلكة ، والشهوات المدمرة ، وما ينفق بعد ذلك على علاج ضحاياها ، وكان من وراء ذلك زيادة فى الإنتاج وانتعاش فى الإقتصاد.

وإن الناظر إلى حال المسلمين اليوم يجد أن هناك سؤالاً يطرح نفسه وهو: إذا كنا مسلمين حقاً فكيف وصل بنا الحال إلى هذا الحد الذى نعيش فيه ونكتوى بلظاه ونتجرع مرارته؟

---

[١] التوجيه الإسلامى للشباب من بحوث مؤتمرات مجمع البحوث الإسلامية ١٣٩١هـ- ١٩٧١م صـ١٨٧، وما بعدها تحت عنوان الدين وحماية الشباب من الإنحراف السلوكى والفكرى للأستاذ محمد خلف الله أحمد.

وكيف سقط المسلمون وتغيرت أحوالهم من أعلى الدرجات إلى الحضيض والإسلام هو الإسلام لم يتبدل ولم يتغير، والمسلمون عددهم يزداد يوماً بعد يوم؟

وللإجابة على هذا التساؤل نقول :

"إذا كان الزمن قد تغيَّر على المسلمين ، فانكمشوا بعد امتداد ، ووهنوا بعد قوة ، فلأن الإيمان لم يعد هو المسيطر على أنفسهم ، والموِّجه لأخلاقهم وسلوكهم لقد بات إيمانهم إيماناً " جغرافياً " بحكم ولادتهم فى أرض المسلمين ، أو إيماناً "وراثياً" يأخذونه عن آبائهم كما يرثون الدور والعقارات ، بات إيماناً مُخَدراً نائماً لا تأثير له ، ولا حيوية فيه فكيف يورِث القوة ، ويهب للنفس العزيمة؟

ولقد كشف الرسول ﷺ لأمته عن الأسباب العميقة لضعفها حين تضعف، وهوانها حين تهون على أعدائها، فقال- وصدَّق الزمن ما قال- ﷺ: (يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها فقال قائل ومن قلة نحن يومئذ قال بل أنتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم وليقذفن الله فى قلوبكم الوهن فقال قائل يارسول الله وما الوهن قال حب الدنيا وكراهية الموت) [١]

يقول الشيخ / **على الزهرانى:** "والحقيقة التى تبدو واضحة وضوح الشمس فى رابعة النهارأن الأحول التى وصلت إليها الأمة فى هذه الفترة كان بسبب تفريطها وتهاونها فى أمر دينها ، حين وقع فى حياة الأمة كثير من الإنحرافات ، التى لم تعالج فى وقتها علاجاً حاسماً ، ولم يقض عليها فى مهدها ، التى لم تزدد على مرالتاريخ إلاَّ ضراوة ، حتى آل بها الحال أن جثمت فى القرنين الأخيرين على حياة الأمة وكادت أن تقضى عليها لولا أن منَّ الله ﷻ بهذا البعث الجديد الذى نراه فى الصحوة الإسلامية المباركة ، وإن كان ما زال ينوء بعبء هذه الإنحرافات الجاثمة على كيان هذه الأمة.

وفى الواقع أن هبوط الامة من الذروة العليا إلى الحضيض السحيق كان نتيجة حتمية[٢]، لمثل هذه الإنحرافات والإعوجاجات، هو أمر جرى على السُّنة الربانية ووقف لها تماماً يقول الله

---

(١) أخرجه أبو داود ٤/٩٨ ، كتاب الملاحم ، باب تداعى الأمم على الإسلام ، من حديث ثوبان ﷺ ، وهو حديث صحيح ، كما قاله الشيخ الألبانى ، وانظر سنن أبى داود صـ٨١٠

(٢) ومع وضوح هذه الحقيقة وورودها فى القرآن الكريم والسنة الشريفة ، فإن بعض المنتسبين للعلم من المسلمين يجهلونها تماماً! وينسبون كل ما أصاب المسلمين مادياً وحضارياً إلى الإسلام غافلين تماماً عن التخلف الدينى الذى لحق بالأمة وكان السبب الحقيقى والأول فى تدهور أوضاع المسلمين وانحطاط شئونهم هذا بالنسبة لبعض المصلحين المخلصين، أما العلمانيون والمنافقون فهم يحاولون طمس هذه الحقيقة الناصعة بل لم يكتفوا بذلك حتى صاروا ينسبون كل نقيصة لحقت بالمسلمين إلى الإسلام وأنه السبب فى كل ما أصاب المسلمين ، يراجع كتاب الإنحرافات العقدية والعلمية فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين

تعالى: ﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللّهِ إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلاَ مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ ﴾[١] ويقول تعالى :﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[٢]

ويقول النبى ﷺ: (إذا تبايعتم بالعينة وأخذتم أذناب البقر ورضيتم بالزرع وتركتم الجهاد سلط الله عليكم ذلاً لا ينزعه حتى ترجعوا على دينكم)[٣].

والحديث كناية عن إقبال المسلمين على الدنيا وزينتها، وركونهم إليها حيث تركوا الجهاد فى سبيل الله تعالى والبذل والعمل من أجل إقامة دين الله فكانت النتيجة المحققة أن أصيب المسلمون بالإنحطاط والضعف، وتسلط الأعداء عليهم من كل مكان"[٤] ."

قوله ﷺ (تداعى) أصله تتداعى أى تجتمع ويدعو بعضها بعضاً لسلب ملككم كما تتداعى الأكلة وهى جمع آكل إلى وجبة الطعام ، والغثاء بالضم ما يحمله السيل ويلقيه من الزبد ونحوها ويضرب مثلاً لما لا قيمة له ولا فائدة ، والوهن الضعف، وإنما سأله السائل عن سببه فأجابه ﷺ بأن سببه حب الحياة الدنيا ولذاتها الخسيسة وإيثارها على الجهاد فى الدفاع عن النفس وإعلاء كلمة الله تعالى، وكراهية الموت ولو فى سبيل الحق حرصاً على هذه الحياة الخسيسة.

والمعنى: أن المسلمين يأتى عليهم يوم يصيرون فيه مأكلة وتمتد إليهم الأيدى من كل جهة، فهذا العصر الذى نحن فيه هو ذلك اليوم، وأن المسلمين لا يكون عيبهم يومئذٍ قلة الكثرة بنفسها لا تفيد أن تقترن بجودة النوع والكمية التى لا تغنى عن الكيفية، وعلة العلل فى ضعف المسلمين ذلك اليوم هو الجبن والبخل، صريح ذلك فى قوله ﷺ (حب الدنيا وكراهيتكم الموت) ومن المعلوم أن الإفراط فى حب الدنيا يحرم الإنسان التمتع بها وأن الغلو فى المحافظة على الحياة تكون عاقبته زيادة التعرض للهلاك"[٥].

"هذا هو مبعث الوهن الحقيقى، وسر الضعف الأصيل، أن يخلد المرء إلى دنياه الخاصة ، فيعيش عبداً لها مطواعاً لأوضاعها الرتيبة ، أسيراً لقيودها الثقيلة، تحركه الشهوات ، وتسيره

وآثارهما فى حياة الأمة صـ٤٤ تأليف الشيخ / على بخيت الزهرانى ط دار طيبة للنشر والتوزيع ، المملكة العربية السعودية – مكة المكرمة العزيزية ط الثانية ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م.

[١] سورة الرعد الآية ١١

[٢] سورة الأنفال الآية ٥٣

[٣] أخرجه أبو داود برقم ٣٠٠٣ فى كتاب البيوع باب النهى عن العينة من حديث ابن عمر رضى الله عنهما ، وهو حديث صحيح ، كما قال الشيخ ناصر الدين الألبانى ، وانظر صحيح سنن أبى داود صـ٦٥٥

[٤] الإنحرافات العقدية والعلمية للشيخ عى الزهرانى صـ٤٤ ، ٤٥

[٥] لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم صـ٨٥

الرغائب المادية. حب الدنيا هو الذى يجعل الملِك فى صولجانه عبداً ضعيفاً ، أمام إمرأة يعشقها أو شهوة يطمع فى نيلها، وكراهية الموت هى التى تجعل الأفراد والجماعات يؤثرون حياة ذليلة على موت كريم"[١].

مما سبق يظهر لنا أن عاقبة الشقاء وخيمة ومآل الاشقياء فى الدنيا غاية فى السوء، فضلاً عما ينتظرهم فى الدار الآخرة، كما سيأتى بيانه فى الفصل التالى بعون الله تعالى.

obeikandl.com

[١] الإيمان والحياة صـ٢٧٩

الفصل الثانى

مظاهر الشقاء الأخروية

ويتكون هذا الفصل من مبحثين:

المبحث الأول: مظاهر الشقاء الأخروية على النفس

المبحث الثانى: مظاهر الشقاء الأخروية على البدن

obeikandl.com

المبحث الأول

مظاهر الشقاء الأخروية على النفس

obeikandl.com

مظـــاهر الشقاء الأخرويـــة على النفس

مُقَدِّمَة

إن للإيمان أثر عظيم فى اجتناب الشر والإستكثار من الخير، فطريق الله تعالى إيمان يملأ القلب ويسيطر على الشعور، ويأخذ على الإنسان جميع مسالكه، فلا يفكر إلاَّ فى الله ولا يسعى لغير الله ولا يرى غير الله، وطريق الله لا يعرف المظهر الخادع ولا المنطق البارع، وإنما هو القلب الخاشع والعلم النافع والعمل الصالح وتطهير الباطن من شوائب النفاق، وتزكية النفس من ذميم الاخلاق واتقاء الله باتباع ما أمر.

والناس بحسب العاقبة إما سعداء أوأشقياء قال الله تعالى:﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾[١]

فالسعداء هم الذين آمنوا بالله تعالى واحداً أحداً خالقاً متصرفاً مالكاً، وآمنوا بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، ثم عملوا بوحى إيمانهم فأقاموا الصلاة صلة بينهم وبين ربهم، ووصلاً بينهم وبين خالقهم، وأدوا الزكاة وآتوا المال على حبه فى سبيل مانحه ومهديه، واستجابوا لدواعى يقينهم فآتوا كل صالح وتباعدوا عن كل طالح، فاستحقوا بوصفهم مؤمنين عاملين أن يبارك الله لهم سعيهم ويهديهم سواء السبيل .

والأشقياء هم المطرودون الذين حق عليهم القول وهم أهل الظلمة المختوم على قلوبهم أزلاً، كما قال تعالى:﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَـئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾[٢].

"فهم لم يفتحوا القلوب التى أعطوها ليفقهوا، ودلائل الإيمان والهدى حاضرة فى الوجود وفى الرسالات تدركها القلوب المفتوحة والبصائر المكشوفة، وهم لم يفتحوا أعينهم ليبصروا آيات الله الكونية، ولم يفتحوا آذانهم ليسمعوا آيات الله المتلوة، لقد عطلوا هذه الأجهزة التى وهبوها ولم يستخدموها، لقد عاشوا غافلين لا يتدبرون"[٣].

---

(١) سورة هود الآية ١٠٥
(٢) سورة الأعراف الآية ١٧٩
(٣) تفسير الظلال ١٤٠١/٣

والكافرون هم الفريق الأول من الأشقياء الذين أهل القهر الإلهى لا ينجح فيهم الإنذار ولا سبيل إلى خلاصهم من النار، أولئك حقت عليهم كلمة ربك أنهم لا يؤمنون قال ﷻ ﴿وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ (١).

سددت عليهم الطرق وأغلقت عليهم الأبواب، فحبسوا فى سجون الظلمات فما أعظم عذابهم.

ومنهم المنافقون الذين كانوا مستعدين فى الأصل قابلية للنور بحسب الفطرة والنشأة، ولكن احتجبت قلوبهم بالرين المستفاد من اكتساب الرزائل حتى رسخت الهيئات الفاسدة والملكات المظلمة فى أنفسهم، وارتكمت عى أفئدتهم فبقوا شاكين حيارى تائهين، قد حبطت أعمالهم، وانتكست رؤوسهم فهم أشد عذاباً وأسوأ حالاً.

وقد بالغ القرآن الكريم فى ذمهم وتهديدهم أكثر من تهديده للمشركين، وذلك لإمكان قبولهم للهداية عسى التقريع يكبح جماحهم ويقلع أصول رذائلهم فتتنور قلوبهم بنور الإرادة فيسلكوا طريق الحق، ولعل ملاطفة المؤمنين لهم تستميل طباعهم وتلين قلوبهم إلى ذكر الله تعالى فيتوبوا ويصلحوا كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ۞ إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَاعْتَصَمُواْ بِاللّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلّهِ فَأُوْلَـئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾(٢).

هذا وإن من مظاهر الشقاء الأخروية النفسية :

١ – سواء الوجه :

قال تعالى: ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ۞ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾(٣).

يقول **الإمام الرازى:** "إن المؤمن يرد يوم القيامة على ما قدمت يداه، فإن كان ذلك من الحسنات أبيض وجهه ، بمعنى استبشر بنعم الله وفضله، وعلى ضد ذلك إذا رأى الكافر أعماله القبيحة محصاة اسود وجهه بمعنى شدة الحزن والغم ثم يقول رحمه الله تعالى والحكمة فى ذلك أن أهل الموقف إذا رأوا البياض فى وجه الإنسان عرفوا أنه من أهل الثواب فزادوا فى تعظيمه فيحصل له الفرح بذلك من وجهين :

---

(١) سورة غافر الآية ٦
(٢) سورة النساء الآيتان ١٤٥-١٤٦
(٣) سورة آل عمران الآيتان ١٠٦-١٠٧

الأول: أن السعيد يفرح بأن يعلم قومه أنه من أهل السعادة ، قال تعالى مخبراً عنهم: ﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ۞ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾[١].

الثاني: أنهم إذا عرفوا ذلك خصوه بمزيد التعظيم فثبت أن ظهور البياض في وجه المكلف سبب لمزيد سروره في الآخرة وبهذا الطريق يكون ظهور السواد في وجه الكافر سبباً لمزيد غمه في الآخرة، فهذا وجه الحكمة في الآخرة وأما في الدنيا فالمكلف حين يكون فيالدنيا إذا عرف حصول هذه الحالة في الآخرة صار ذلك مرغباً له في الطاعات وترك المحرمات لكي يكونوا في الآخرة من قبيل من يبيض وجهه لا من قبيل من يسود وجهه"[٢].

فسواد الوجه من أشد ما يسيء النفس ويحزنها، حيث إنه من أبرز العلامات التي يُعرف بها أهل النار، قال جل شأنه: ﴿ يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ﴾ [٣].

"ومعنى (بِسِيمَاهُمْ): أي بسواد وجوههم وزرقة عيونهم "[٤].

ويؤكد القرآن الكريم عظم الطاعة في تهلل الوجه وإشراقه، واستبشاره، ونضرته، وبذلك تسعد النفس وتسر، كما يؤكد فداحة المعصية وأثرها في سواد الوجه، وغبرته، وبذلك تحزن النفس وتغتم قال تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ ۞ ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ ۞ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ۞ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ۞ أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ﴾. [٥]

"ومعنى﴿ مُسْفِرَةٌ﴾ أي: مشرقة مضيئة، قد علمت مالها من الفوز والنعيم، وهي وجوه المؤمنين ﴿ ضَاحِكَةٌ ﴾ أي: مسرورة فرحة ﴿ مُسْتَبْشِرَةٌ ﴾ أي: بما آتاها الله من الكرامة ومعنى ﴿ غَبَرَةٌ ﴾ أي: غبار ودخان ﴿ تَرْهَقُهَا﴾ أي: تغشاها ﴿قَتَرَةٌ﴾ أي: كسوف وسواد ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ﴾ جمع كافر ﴿ الْفَجَرَةُ﴾ جمع فاجر، وهو الكاذب المفترى على الله تعالى"[٦].

ومما يؤكد أن المعصية تورث الوجه الغبرة ما ذكره **الإمام القرطبي** حيث يقول: " إذا كان الرجل رأساً في الشر، يدعو إليه ويأمر به فيكثر تبعه عليه، نودى باسمه واسم أبيه فيتقدم إلى حسابه، فيخرج له كتاب أسود بخط أسود في باطنه الحسنات وفي ظاهره السيئات، فيبدأ بالحسنات فيقرأها ويظن أنه سينجو، فإذا بلغ آخر الكتاب وجد فيه " هذه حسناتك وقد ردت عليك

---

[١] سورة يس الآيتان ٢٦ – ٢٧
[٢] تفسير الرازى ٣٨١/٤-٣٨٢ بتصرف
[٣] سورة الرحمن الآية ٤١
[٤] تفسير النسفى ١٧٣٨/٣
[٥] سورة عبس الآيات ٣٨-٤٢
[٦] تفسير القرطبى ١٤٧/١٠ باختصار وتصرف

" فيسود وجهه ويعلوه الحزن ويقنط من الخير، ثم يقلب كتابه فيقرأ سيئاته فلا يزداد إلا حزناً، ولا يزداد وجهه إلاَّ سواداً، فإذا بلغ آخر الكتاب وجد فيه " هذه سيئاتك وقد ضوعفت عليك " أى يضاعف عليه العذاب، ليس المعنى أنه يزاد عليه مالم يعمل – قال – فيعظم للنار وتزرق عيناه ويسود وجهه، ويكسى سرابيل القطران ويقال له: انطلق إلى أصحابك وأخبرهم أن لكل إنسان منهم مثل هذا فينطلق وهو يقول ﴿ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيهْ ۞ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيهْ ۞ يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ﴾.[١] يتمنى الموت"[٢]. وهذا هو الذى يزيده شعوراً بالمذلة والهوان.

٢- الشعور بالحسرة والندامة :

قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ۞ يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ۞ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولًا ﴾[٣].

" قال عطاء: يأكل يديه حتى تذهبا إلى المرفقين، ثم تنبتان، فلا يزال هكذا كلما نبتت يده أكلها ندامة عى ما فعل ".[٤]

وتعظم الحسرة بمن استحل ما حرم الله تعالى إلى درجة أنه يتمنى أن لو كان له ملء الأرض ذهباً فينقذ به نفسه من ضراوة ما يعانيه فى الآخرة يشير إلى ذلك قوله ﷻ: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴾[٥].

" فهذه الآية الكريمة تؤكد أن الكافر لا ينقذه من عذاب الله شيء ولو كان قد أنفق مثل الأرض ذهباً ولو افتدى نفسه من الله بملء الأرض ذهباً بوزن جبالها وتلالها وترابها ورمالها وسهلها ووعرها وبرها وبحرها "[٦].

ويتفاقم ندم الكافر وحسرته إلى درجة أنه يتمنى أن لو كان تراباً تذروه الرياح: قال تعالى ﴿ إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَالَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا﴾[٧].

---

[١] سورة الحاقة الآيات ٢٥-٢٧.
[٢] تفسير القرطبى ١٧٦/٩
[٣] سورة الفرقان الآيات ٢٧-٢٩
[٤] زاد المسير فى علم التفسير للإمام أبى الفرج محمد الجوزى ١٣/٦ ط دار الكتب العلمية بيروت – لبنان الطبعة الأولى
[٥] سورة آل عمران الآية ٩١
[٦] تفسير ابن كثير ٣٨١/١ بتصرف.
[٧] سورة النبأ الآية ٤٠

يقول **الإمام الموارديى:** " يبعث الحيوان فيقاد للمنقورة من الناقرة، وللمركوضة من الراكضة، وللمنطوحة من الناطحة، ثم يقول الرب تعالى: كونوا تراباً بلا جنة ولا نار فيقول الكافر حينئذٍ: ياليتنى كنت تراباً، وفى قوله ذلك وجهان، أحدهما: ياليتنى صرت اليوم مثلها تراباً بلا جنة ولا نار، الثانى: ياليتنى كنت مثل هذا الحيوان فى الدنيا وأكون اليوم تراباً، وهذه من الأمانى الكاذبة "[١].

وهذا من أبرز مظاهر إهانة النفس وإذلالها، يقول ﷻ : ﴿ وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى ۞ يَقُولُ يَالَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ [٢].

يقول **الشوكانى:** " قوله تعالى ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ ﴾ أى يوم جيء بجهنم يتذكر الإنسان أى يتعظ ويذكر ما فرط منه، وحرم على ما قدمه فى الدنيا من الكفر والمعاصى ﴿وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى ﴾ أى ومن أين له التذكر والإتعاظ، ومن أين له منفعة الذكرى ﴿ يَقُولُ يَالَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ والمعنى: يتمنى أنه قدم الخير والعمل الصالح، واللام فى الحياة بمعنى لأجل حياتى، والمراد حياة الآخرة فإنها الحياة بالحقيقة، لأنها دائمة غير منقطعة "[٣].

ومن النظائر لذلك أيضاً قول الله تعالى ﴿ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا ۞ وَيَصْلَى سَعِيرًا ۞ إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا ۞ إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ ﴾ [٤]

فالآيات إخبار من الله تعالى عن حال الأشقياء يوم القيامة، وتمنيهم الموت ﴿فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا ﴾، والثبور الهلاك.

يقول **الإمام ابن كثير:** "الثبور: تمنى الموت ولم يكن شىء فى الدنيا أكره عنده منه"[٥] وبين سبحانه العلة فى استحقاقه هذا العذاب فقال: ﴿ إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا ۞ إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ ﴾ والمعنى: "إنه كان فى الدنيا بين أهله وعشيرته مترفاً بطراً مستبشراً لديون الفجار الذين لا يهمهم ولا يخطر ببالهم أمور الآخرة ولا يتفكرون فى العواقب، وظن أنه لن يرجع إلى الله تعالى تكذيباً للمعاد "[٦].

---

(١) النكت والعيون تفسير الموارديى للإمام أبى الحسن الموارديى ١٩١/٦ ط دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان
(٢) سورة الفجر الآيتان ٢٣-٢٤
(٣) فتح القدير للشوكانى ٤٤٠/٥ بتصرف واختصار
(٤) سورة الإنشقاق الآيات ١١-١٤
(٥) مختصر ابن كثير ٥٤٤/٣ وما بعدها
(٦) تفسير أبى السعود ١٣٣/٩ بتصرف

٣- التوبيخ والإستهزاء:

ومن الآثار الأخروية النفسية التى تلحق بالأشقياء التوبيخ والسخرية والإستهزاء، كما أخبر القرآن الكريم فى قوله تعالى: ﴿ وَبَشِّرْ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [١].

يقول العلامة **الفخر الرازى:** " العذاب الأليم فى الآخرة لكى لا يظن أن عذاب الدنيا لما فات وزال، فقد تخلص عن العذاب، بل العذاب الشديد معد له يوم القيامة، ولفظ البشارة وردها هنا على سبيل الإستهزاء كما يقال: تحيتهم الضرب وإكرامهم الشتم"[٢].

ومن أشد ما يعانيه الأشقياء من التوبيخ والتعنيف إخبارهم بشديد غضب الله تعالى عليهم ولعنة لهم. وإلى هذا يشير قوله ﷻ : ﴿ وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُواْ نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ [٣].

يقول **الإمام الجمل** فى تفسيره للآية الكريمة : " فإن قلت هل هذا النداء من كل أهل الجنة لكل أهل النار أو من البعض للبعض، قلت: ظاهر قوله ﴿ وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ ﴾ يفيد العموم، والجمع إذا قابل الجمع يوزع الفرد على الفرد، فكل فريق من أهل الجنة ينادي من كان يعرفه من الكفار في دار الدنيا، فإن قلت إذا كانت الجنة فى السماء والنار فى الأرض فكيف يمكن أن يبلغ هذا النداء أو كيف يصح أن يقع قلت: إن الله تعالى قادر على أن يقوى الأصوات والأسماع فيصير البعيد كالقريب، ويحتمل أنه تعالى يُقرب إحدى الدارين من الأخرى إما بإنزال العليا وإما برفع السفلى، فإن قلت كيف يرى أهل الجنة أهل النار، وبالعكس مع أن بينهما حجاباً وهو سور الجنة؟ أجيب باحتمال أن سور الجنة لا يمنع الرؤية لما وراءه يكون شفافاً كالزجاج وباحتمال أن فيه طاقات تحصل الرؤية منها "[٤].

وأهل النار إذا لم يهانوا من الزبانية، أو غيرهم أهان بعضهم البعض، فتحيتهم التلاعن حيث إن الأمة اللاحقة إذا دخلت لعنت السابقة يقول سبحانه ﴿ قَالَ ادْخُلُواْ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّن الْجِنِّ وَالإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُواْ فِيهَا

---

[١] سورة التوبة الآية ٣
[٢] تفسير الرازى ٥٧١/٧ بتصرف يسير
[٣] سورة الأعراف الآية ٤٤
[٤] تفسير الجمل ١٤٤/٢

جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاَهُمْ رَبَّنَا هَـؤُلاء أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَـكِن لاَّ تَعْلَمُونَ ﴾ (١)

ومعنى (فى) فى قوله سبحانه ﴿ ادْخُلُواْ فِي أُمَمٍ ﴾ أى مع أمم، وقيل: هى على بابها أى ادخلوا فى جملتهم، والمراد بالأخوة فى قوله سبحانه ﴿ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ أخوة الدين والملة"(٢).

وهذا الذى قررته الآيات السابقة جاء فى غير موضع من القرآن الكريم، ومن ذلك قول الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاء أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ۞ قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاء وَلَكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ﴾(٣).

والآيتان إخبار من الله تعالى عما يلاقيه الكافرون من توبيخ وتقريع لقاء شركهم، حيث يتبرأ المعبودون من عبادتهم، مظهرين علة وقوعهم فى الشرك وهى تمتيعهم فى الدنيا بطول الأعمار، وكثرة الأغمار(٤).

وموضع الشاهد فى الآية ومحل الغرض منها قوله تعالى: ﴿ وَلَكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ﴾ .

"والمتاع: طول العمر وما ينتفع به، يقال، متع الله فلاناً: عمره، ومتعه بكذا: أعطاه ما ينتفع به ويرغب فيه من طعام وأثاث ومال ونحو ذلك وأكثر ما يستعمل فى المشتهيات الباطلة، وما يلحقه الفناء كالمال والنساء والولد "(٥).

والمراد بالتمتيع ما هو سبب له، وهو اشتغالهم بالإستمتاع عما ذكروا به على ألسنة الرسل.

يقول العلامة **أبو السعود:** "نعى عليهم سوء صنيعهم حيث جعلوا أسباب الهداية أسباباً للضلالة، أى ما أضللناهم ولكنك متعتهم وآبائهم بأنواع النعم ليعرفوا حقها ويشكروها فاستغرقوا فى الشهوات وانهمكوا فيها، فغفلوا عن ذكرك، أو التفكر فى آلائك، والتدبر فى آياتك، فجعلوا

---

(١) سورة الأعراف الآية ٣٨
(٢) تفسير القرطبى ١٣١/٤ بتصرف
(٣) سورة الفرقان الآيتان ١٧-١٨
(٤) الإغمار : جمع غمر من غمر فلان فلاناً إذا غطاه بفضله ، وللمادة معان أخرى (معجم ألفاظ القرآن الكريم ، مجمع اللغة العربية ٢٩٦/٤ ، المعجم الوجيز ٤٥٤).
(٥) معجم ألفاظ القرآن الكريم ، مجمع اللغة العربية ٨/٦ ، والمعجم الوجيز ٥٧٢

أسباب الهداية بسوء اختيارهم ذريعة إلى الغواية وقوله تعالى ﴿ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ﴾ أى من الهالكين، وهو تذييل مقرر لمضمون الجملة قبله"[١].

والمعنى: ولكن متعتهم وآبائهم فى الدنيا بخفض العيش ، وطول العمر بعد موت الرسل فتركوا ذكرك ، وأشركوا بك بطراً وجهلاً.

ويقص القرآن الكريم علينا ما يعانيه المذنبون من تعنيف خزنة جهنم، وتبكيتهم من ذلك قول الله تعالى: ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ۞ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾[٢].

يقول **أبو السعود** فى تفسيره للآية الكريمة: "أى سيقوا إليها بالعنف والإهانة أفواجاً متفرقة بعضها فى أثر بعض مترتبة حسب ترتيب طبقاتهم فى الضلالة والشرارة والزمر جمع زمرة واشتقاقها من الزمر وهو الصوت إذ الجماعة لا تخلو عنه ﴿ وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا ﴾ تقريعاً وتوبيخاً ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ ﴾ من جنسكم ﴿ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ أى وقتكم هذا وهو وقت دخولهم النار وفيه دليل على أنه لا تكليف قبل الشرع من حيث أنهم عللوا توبيخهم بإتيان الرسل وتبليغ الكتب ﴿ قَالُوا بَلَى ﴾ قد أتونا وأنذرونا ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين"[٣].

ونظير هذه الآيات فى تقرير المعنى قوله سبحانه: ﴿وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴾[٤].

"والطرف الخفى الذى يُخفى نظره كالمصور ينظر إلى السيف لما لحقهم من الذل والخوف والوجل، قال مجاهد: من طرف خفى أى ذليل قال: وإنما ينظرون بقلوبهم لانهم يحشرون عمياً، وعين القلب طرف خفى"[٥].

---

[١] تفسير أبو السعود ٢٠٩/٦
[٢] سورة الزمر الآيتان ٧١-٧٢
[٣] تفسير أبو السعود ٤٧٧/٤ ، ٤٧٨
[٤] سورة الشورى الآية ٤٥
[٥] تفسير فتح القدير ٥٤٣/٤

ومن أبلغ سور الإستهزاء التى يتعرض لها الأشقياء الحسرة الشديدة والرغبة فى النظر إلى أهل الإيمان نظراً لما حباهم الله تعالى من بياض الوجه ونضرة النعيم بالرغم من أنهم سخروا منهم فى الدنيا يشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۞ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ۞ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ (١).

يقول **صاحب الظلال:** " إن هناك المنافقين والمنافقات فى حيرة وإذلال ومهانة وإهمال، وهم يتعلقون بأذيال المؤمنين والمؤمنات ﴿ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ ﴾.... فحيثما تتوجه أنظار المؤمنين والمؤمنات يشع ذلك النور اللطيف الشفيف ولكن أنى للمنافقين أن يقتبسوا من هذا النور وقد عاشوا حياتهم كلها فى ظلام؟ إن صوتاً مجهلاً يناديهم ﴿ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا﴾ ويبدو أنه صوت للتهكم، والتذكير بما كان منهم فى الدنيا من نفاق ودس فى الظلام ، ارجعوا وراءكم إلى الدنيا إلى ما كنتم تعملون، ارجعوا فالنور يُلتمس من هناك من العمل فى الدنيا، ارجعوا فليس اليوم يُلتمس النور! وعلى الفور يفصل بين المؤمنين والمؤمنات والمنافقين والمنافقات فهذا يوم الفصل إن كان فىالدنيا مختلطين فى الجماعة ﴿ فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ ... ويبدو أنه سور يمنع الرؤيا ولكن لا يمنع الصوت، فها هم أولاء المنافقين ينادون المؤمنين ﴿أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ﴾ فما بالنا نفترق عنكم؟ ألم نكن معكم فى الدنيا نعيش فى صعيد واحد ؟ وقد بُعثنا معكم هنا فى صعيد واحد؟ ﴿ قَالُوا بَلَى ﴾ كان الأمر كذلك ﴿ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ ﴾ فصرفتموها عن الهدى ﴿ وَتَرَبَّصْتُمْ ﴾... فلم تعزموا ولم تختاروا الخيرة الحاسمة ﴿ وَارْتَبْتُمْ﴾ فلم يكن لكم من اليقين ما تعزمون به العزمة الأخيرة ﴿وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ ﴾الباطلة فى الأمر ﴿ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ ... وهو الشيطان الذى كان يطعمكم ويمنيكم"(٢).

---

(١) سورة الحديد الآيات ١٢-١٤

(٢) فى ظلال القرآن ٦/٣٤٨٦

ويقال لكل من كان دأبه التمرد على أوامر الله ونواهيه، والتكبر فى الأرض بغير الحق والزهو والخيلاء، والإستعلاء على عباد الله ، وهو يتجرع العذاب بمختلف صنوفه وأشكاله كما أخبر القرآن الكريم ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾ [١].

يقول **الألوسى:** "أى يقال: أو قولوا له ذلك استهزاء وتقريعاً على ما كان يزعمه، ثم يقول رحمه الله تعالى بعد تعرضه لذكر سبب نزول الآية المباركة مبيناً أنها نزلت فى أبى جهل لعنه الله تعالى، وهذا ونحوه لا يدل أيضاً على تخصيص حكم الآية به، فكل أثيم يدعى دعواه كذلك يوم القيامة، وقيل: المعنى ذق إنك أنت العزيز فى قومك الكريم عليهم فما أغنى ذلك عنك ولم يفدك شيئاً والذوق مستعار للإدراك "[٢].

فيتزايد شعوره بالإهانة والمذلة إذ كيف يكون عزيزاً كريماً وهو يعانى ما يعانى ويقاس ما يقاس.

وبعـــد :

فهذه بعض الآثار الأخروية النفسية، والحق أن مظاهر وآثار الشقاء الأخروية النفسية أكبر من أن تحصى، وأن مثل هذا البحث لا يمكن أن يستوعب كل ما سجله القرآن الكريم من آثار وأضرار، ولكن حسبى أننى وقفت على بعض المظاهر تُعد نماذج لما يعانيه الأشقياء يوم القيامة لتحصل بها العبرة.

---

[١] سورة الدخان الآية ٤٩

[٢] تفسير الألوسى ٢٠٥/١٤

المبحث الثانى

مظاهر الشقاء الأخروية على البدن

obeikandl.com

مظاهر الشقاء الأخروية على البدن

مُقَدِّمَة

لكل سيد على عبيده حق الطاعة وعدم المعصية، كما لكل حكومة على رعيتها حق إطاعة القوانين، وعدم مخالفتها.

والله سبحانه وتعالى سيد العباد وملكهم، وقد حدّ حدوداً أمر بعدم تجاوزها، وفرض فروضاً طالت بها، ومن رحمته أنه لم يأمر إلاَّ بما ينفع العباد، ولم يَنْهِ إلاَّ عما يضرهم لأنه سبحانه لا تنفعه الطاعة ولا تضره المعصية، ولأنه سبحانه عظيم جبار متكبر، لذا كانت معصيته كبيرة الشأن خطرة قال تعالى: ﴿ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا ﴾[١].

وجهنم هى السجن الذى أوعد الله تعالى عباده أن يدخلهم إليه إذا عصوه، وذلك لأن الله خلقهم ثم فضلهم على خلقه، وسخر لهم السماوات والأرض، وأعطاهم من كل شيء، وعلمهم، وبسط لهم مائدة يأكلون منها ويشربون كلما أرادوا طيلة اعمارهم، ولم يمنعهم لذة من لذائذ الحياة واستجاب لكل منهم كل ما طلب قال تعالى : ﴿ وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا ﴾[٢].

فكانت النتيجة أن أنكر الإنسان هذه النعم، وسَبّ ربّه وجعل له شريكاً، أو عبد غيره، أو أنكر وجوده، أو عزا هذه النعم لسواه، أو لذكائه وشطارته، وأطاع عدوه وعدو ربه وعصى ربه قال تعالى: ﴿ إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾[٣].

لهذا كانت معصية الله تعالى أو تحديه، أعظم من أن يتصورها العقل لفداحتها فكانت العقوبة جهنماً، هذا ولقد تضافرت النصوص القرآنية على وصف جهنم، وبيان ما فيها من شدائد وأهوال، يمكن لى أن أذكر طرفاً من ذلك على النحو التالى:

شدة حرها :

قال تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ۝ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [٤].

---

[١] سورة النساء الآية ١٤
[٢] سورة النحل الآية ١٨
[٣] سورة إبراهيم الآية ٣٤
[٤] سورة التوبة الآيتان ٨١-٨٢

"والمعنى أنهم إن فرحوا وضحكوا طول أعمارهم فى الدنيا فهو قريب بالنسبة إلى بكائهم فى الآخرة لأن الدنيا فانية، والآخرة باقية، والمنقطع الفانى بالنسبة إلى الدائم الباقى قليل"(١).

ويصف القرآن الكريم نار جهنم وعظيم شهيقها وزفيرها فيقول ﷻ: ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُواْ فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴾ (٢). والزفير: إخراج النفس، والشهيق: رده مع السرعة والجهد.

يقول الدكتور/ **محمد حجازى** فى تفسيره للآية الكريمة : "من الناس شقى حقت عليه الكلمة وعمل عمل أهل النار، ومنهم سعيد، أريد له الخير فعمل عمل أهل الخير وكل مسير لما خلق له.

فأما الذين شقوا فى الدنيا بالعمل الفاسد والإعتقاد الزائغ، ففى النار مستقرهم ومثواهم، لهم فيها زفير وشهيق من شدة الكرب، وضيق الصدر بما حل بهم فهم يتنفسون الصعداء تكاد صدورهم تخرج من شدة الحزن والبكاء"(٣).

"ومن خلال التعبير نشهد ﴿ الَّذِينَ شَقُواْ ﴾ فى النار مكروبى الإنغماس، ولهم فيها زفير وشهيق من الحر والكتمة والضيق"(٤).

ويؤكد القرآن الكريم شدة حرّها، وشدة مقاساة أهلها، إذ يقول سبحانه: ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ۞ فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ۞ وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ ۞ لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ۞ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ ۞ وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ ۞ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ۞ أَوْ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ۞ قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ۞ لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ۞ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ ۞ لَآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ ۞ فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ۞ فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ ۞ فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ ۞ هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ﴾ (٥).

فهذه الآيات الكريمة نص فى بيان عاقبة المترفين فى الدار الآخرة، وأنهم من أصحاب الشمال، أى يؤخذون إلى الجهة ذات الشمال وهى النار، أو أنهم يأخذون صحائفهم بشمالهم، وقد

---

(١) تفسير الجمل ٣٠٥/٢
(٢) سورة هود الآية ١٠٦
(٣) التفسير الواضح ١٤٧/٢
(٤) فى ظلال القرآن ١٩٢٩/٣
(٥) سورة الواقعة الآيات ٤١-٥٦

سماهم الله تعالى أصحاب المشئمة من الشؤم، وهو ضد اليمين والسعد، وسَمُّوا بذلك أخذاً من اليد الشؤمى وهى الشمال، لانهم كانوا يتشائمون بها كما فى البارح[١] وقيل: سموا بذلك لأنهم أشقياء مشائيم على أنفسهم بمعاصيهم"[٢]. وقد أخبر الله تعالى عنهم بأنهم ﴿فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ۞ وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ ۞ لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾.

والسموم: الهواء الحار، وسمى بذلك لنفوذه فى مسام الجلد، وقد يطلق على الريح الشديدة البرد لنفوذها فى المسام أيضاً ، وهو لون من عذاب أصحاب الشمال، وقد نفاه.

الله تعالى عن الأبرار فى الجنة فقال ﴿ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ [٣].

والمعنى كما ذكره **العلامة أبو السعود:** "إنه يمر عليهم هواء معقول لا حار محمم، ولا بارد مؤذٍ"[٤].

والتعبير بالظرفية فى قوله تعالى ﴿ فِي سَمُومٍ ﴾ للمبالغة فى تمكين العذاب منهم، وإحاطته بهم، وقد جاء هذا المعنى فى مواضع كثيرة فى القرآن العظيم منها قوله تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ۞ يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[٥] وقوله سبحانه: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ ﴾ [٦].

والحميم: الماء المتناهى فى الحرارة، وقد ذكر الله تعالى صوراً من تعذيبهم به فبين سبحانه: أنهم يترددون بينه وبين مقارهم ومنازلهم فى النار فقال: ﴿ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ ۞ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ﴾ [٧]

---

[١] البارح: اسم لطائر يطير من اليمين إلى الشمال، والعرب تتشاءم منه، وفي مقابله السانح: وهو اسم لطائر يطير من الشمال إلى اليمين، والعرب تتفاءل به، معجم ألفاظ القرآن الكريم، مجمع اللغة العربية ٩/٤.

[٢] تفسير الألوسى ١٣١/١٤

[٣] سورة الإنسان الآية ١٣

[٤] تفسير أبو السعود ٧٣/٩

[٥] سورة العنكبوت الآيتان ٥٤-٥٥

[٦] سورة الزمر الآية ١٦.

[٧] سورة الرحمن الآيتان ٣٤-٤٤

أى شديد الحرارة والغليان، وبيَّن أنه يصيب من فوق رؤوسهم فيُنضج ويذيب ما فى البطون والجلود، فقال: ﴿ هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُؤُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ۞ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ﴾[١].

"وقدم ما فى البطون على الجلود مع أن الملابسة على العكس للإشعار بغاية شدة الحرارة بإيهام أن تاثيرها فى الباطن أقدم "اسبق" من تأثيرها فى الظاهر"[٢]. فهى كقوله سبحانه: ﴿ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾[٣].

ويبين سبحانه فى موضع آخر أنهم يشربونه مشوباً مخلوطاً بالصديد والقيح فقال سبحانه ﴿ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴾[٤]. أى لهم على الشجرة من الزقوم بعد أكلهم منها وشدة عطشهم، لهم شراب هو خليط من الحميم والصديد.

وبين سبحانه صفة شربهم منه فقال تعالى ﴿فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ﴾.

"والهيم: جمع أهيم وهيماء وهو الواحدة من الإبل أصابها الهيام وهو شدة العطش، بحيث لا يرويها كثرة الشرب، وقيل: الهيم: الرجل الذى لا يتماسك، فهو لا يمسك الماء ولا ينتفع به، والمراد بيان كثرة شربهم، وعدم ذهاب عطشهم"[٥].

وقوله تعالى: ﴿ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ﴾ "واليحموم: الدخان شديد السواد"[٦].

وقوله تعالى ﴿ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾ أى لا خير فيه فهو ظل حار ضار، وتسميته ظلاً من باب التهكم بهم، والسخرية منهم، ليضيف إلى العذاب الحسى ألم النفس.

قال **الألوسى:** "وفى ذلك تعريض بأن الذى يستأهل الظل الذى فيه برد وإكرام غير هؤلاء فيكون أشجى لحلوقهم وأشد لتحسرهم"[٧].

ونظيره قوله تعالى: ﴿ انطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ ۞ لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ﴾. [٨]

فلا هو ظليل، ولا يقيهم حر اللهب، ولا يخفى ما فى لفظ الظل من التهكم بهم.

---

(١) سورة الحج الآيتان ١٩-٢٠
(٢) تفسير أبو السعود ١٠١/٦
(٣) سورة محمد ﷺ الآية ١٥
(٤) سورة الصافات الآية ٦٧
(٥) تفسير أبو السعود ١٩٧/٨ ، وأضواء البيان للشنقيطى ٦٨٩/٦
(٦) معجم ألفاظ القرآن الكريم ، مجمع اللغة العربية ١٢٧/٢
(٧) تفسير الألوسى ١٤٤/١٤
(٨) سورة المرسلات الآيتان ٣٠-٣١

وتبين الآيات أن طعامهم الزقوم، "والزقوم: اسم شجرة من شجر البوادى، صغير الورق، مرة كريهة الرائحة، ذات لبن إذا أصاب جسد الإنسان تورم[١].

والشجرة بهذا الوصف قبيح شكلاً، مر طعمها، لكن التى تحدث عنها القرآن أشد قبحاً ومرارة، ذلك أن منبتها قعر جهنم، وثمرها كرؤوس الشياطين، كما جاء فى قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ۞ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴾[٢].

قال **الإمام ابن كثير:** "وإنما شبهها برؤوس الشياطين، وإن لم تكن معروفة عند المخاطبين لأنه قد استقر فى النفوس أن الشياطين قبيحة المنظر"[٣].

وقوله تعالى: ﴿ فَمَالِؤُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ۞ فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ ﴾.

"بيان لما يسلط عليهم فى نار جهنم من شدة الجوع، والتهاب النار فى أحشائهم مما يضطرهم إلى شرب الحميم الذى يقطع أمعاءهم، ولا يروى ظمأهم وتأنيث ضمير الشجر أولاً، وتذكيره ثانياً باعتبار المعنى فى الأول، واللفظ فى الثانى"[٤].

ولعله قدم الشرب والإسترواح على الأكل للإهتمام بهما، والإشعار بشدتهما، وذلك لأن الشرب والإسترواح هو غوثهم مما أصابهم من أكل الزقوم ومن حر النار، وأنهما كانا أشد حراً وعذاباً مما يستغيثون منه فشأنهم كالمستجير من الرمضاء بالنار، وفيه من التهكم ما لا يخفى وكذا فى قوله تعالى ﴿هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ﴾.

يقول **العلامة أبو السعود:** "فإذا كان ذلك نزلهم وهو ما يعد للنازل مما حضر، فما ظنك بما لهم بعد ما استقر لهم القرار، واطمأنت بهم الدار فى النار"[٥].

وقد بينت الآيات علة استحقاقهم هذا العذاب، فذكرت الترف، والشرك وإنكار المعاد، فقال تعالى: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ ۞ وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ ۞ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ .

وجعل الترف مع الشرك وإنكار المعاد فى قرن واحد مما يدل على مزيد قبح الترف وعظيم خطره، وتقديمه عليهما فيه إشعار بأنه المؤدى غالباً، والسبب فى وقوعهما، ذلك أن المترف متبع هواه، مخالف لأمر ربه.

---

(١) معجم ألفاظ القرآن الكريم ٨٨/٣، وروح المعاني للألوسي ٩٥/١٢.
(٢) سورة الصافات الآيتان ٦٤-٦٥
(٣) مختصر ابن كثير ١٨٢/٣
(٤) تفسير أبو السعود ١٩٦/٨
(٥) المرجع السابق

قال **الألوسى**- رحمه الله- : "والمترف هو المتروك يصنع ما يشاء لا يمنع، المستكبر عن قبول الحق والإذعان له، والمعنى: أنهم عذبوا لأنهم كانوا فى الدنيا متبعين هوى أنفسهم، وليس لهم رادع منها يردعهم عن مخالفة أوامره ﷻ، وارتكاب نواهيه سبحانه "[١].

وأقول: لعل فى هذا النظم المعجز ما يشير إلى أن الترف يؤدى إلى الكفر ويدعو إليه، حيث قدم نزوعهم إلى الطرف على إصرارهم على الكذب وإنكار البعث.

يقول **الشيخ البقاعى**-رحمه الله - : " قوله سبحانه ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ﴾ أى فى سعة من العيش منهمكين فى الشهوات، مستمتعين بها، متمكنين فيها، ... وأعقبهم ما فى جبلاتهم من الإخلاد للترف عدم الإعتبار والإتعاظ فى الدنيا، والتكبر على الدعاة إلى الله تعالى"[٢].

وهكذا تبرز العلاقة بين الترف والكفر، فإن الترف كما يقول **صاحب الظلال**: "يفسد الفطرة، ويغلظ المشاعر، ويسد المنافذ، ويفقد القلوب تلك الحساسية المرهفة التى تتلقى وتتأثر وتستجيب، ومن هنا يحارب الإسلام الترف، ويقيم نظمه الإجتماعية على أساس لا يسمح للمترفين بالوجود فى الجماعة المسلمة، لأنهم كالعفن يفسد ما حوله، حتى لينخر فيه السوس ويسبح فيه الدود "[٣].

وهكذا يظهر أثر الترف وخطره، وأنه داعية الكفر، ولعل هذا يوضح لماذا كان الملأ من كل أمة – وهم المترفون – هم الذين يناصبون الرسل العداء، وهم الذين يجتهدون فى صد الناس عن اتباعهم.

وهكذا يسوق الترف والمترفين إلى العاقبة السوآى فى الدنيا والآخرة، ذلك أنهم لما شغلهم التلذذ فى الحياة الدنيا وزخرفها عوقبوا بضد ما حرصوا عليه، وقصدوه وكفى بهذا البيان لهذه العاقبة الوخيمة رادعاً يمنع العاقل من أن ينقاد لشهوته ويحثه على أن يحكم قياد نفسه ونوازعها، وذلك بالإيمان الصحيح وما يتضمنه من ضوابط شرعية تضبط السلوك، بضبطه الغرائز والميول النفسانية.

---

[١] تفسير الألوسى ١٤٤/١٤
[٢] نظم الدر للشيخ /البقاعى ٢١٣/١٩
[٣] فى ظلال القرآن ٢٤٦٧/٤

عظم أبدان أهل النار وبشاعة منظرهم:

يدخل أهل النار على صورة ضخمة هائلة ، فعن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : (ما بين منكبى الكافر مسيرة ثلاثة أيام للراكب المسرع)[١].

وعنه ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (ضرس الكافر أو ناب الكافر مثل أحد وغلظ جلده مسيرة ثلاث)[٢].

"وإنما عظم خلق الكافر فى النار ليعظم عذابه ويضاعف ألمه، ولا شك فى أن الكفار متفاوتون فى العذاب كما علم من الكتاب والسنة ولأن نعلم على القطع أن عذاب من قتل الأنبياء وفتك بالمسلمين وأفسد فى الأرض ليس مساوياً لعذاب من كفر فقط وأحسن معاملة المسلمين مثلاً "[٣].

قال **الإمام ابن كثير**– معلقاً على ما سبق من الأحاديث: " ليكون ذلك أنكى فى تعذيبهم، وأعظم فى تعبهم ولهيبهم "[٤].

لأن حس الألم يكون معظمه فى الجلد، فكلما زاد حجم الإنسان وثخن جلده زادت مساحة الجلد وازداد الألم. قال تعالى: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ الْعَذَابَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا** ﴾[٥].

"أى: إذا احترقت جلودهم بدلوا جلوداً غيرها بيضاء أمثال القراطيس، ويجعل للكافر مائة جلد بين كل جلدين لون من العذاب "[٦].

يقول **الإمام الشعراوى:** " هذه الآية عن الأشقياء يوم القيامة ... والهدف منها هو أن يقول الله : إن العذاب سيستمر فى الآخرة .. وكانوا يقولون : إن مراكز الإحساس موجودة فى المخ ... وإن الجلد ليس فيه مراكز إحساس ... كان هذا هو الحديث حتى فترة وجيزة ... أما أيام نزول القرآن فلم يكن أحد يعرف شيئاً عن ذلك على الإطلاق ... فيأتى الله سبحانه وتعالى ويقول ﴿ **كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ الْعَذَابَ** ﴾. فكأن العذاب له

---

[١] أخرجه البخارى ، كتاب الرقاق ، باب صفة الجنة والنار ٦٥٥ ، ومسلم ، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء ٤٥-٢٨٥٢

[٢] أخرجه مسلم ، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء ٢٨٥١/٤٤

[٣] فتح البارى بشرح صحيح البخارى للإمام الحافظ بن حجر العسقلانى ٦٤٨/١٤ ، ٦٤٩ بتصرف.

[٤] النهاية فى الفتن والملاحم للإمام الحافظ ابن كثير ١٥٢/٢ تحقيق : عصام الدين الصبابطى ط دار الحديث بالقاهرة – بدون

[٥] سورة النساء الآية ٥٦

[٦] تفسير ابن كثير ٥١٥/١

صلة بالجلد ... والإحساس بالعذاب يأتى من الجلد .. ثم يكتشف العلم أخيراً أن مراكز الإحساس بالألم موجودة فى الجلد .. وهى التى تحس بالعذاب"[١].

طعام وشراب أهل النار :

ويبين الحق تبارك وتعالى طعام أهل النار فيقول ﴿ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ۞ وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ ۞ فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ ۞ وَلَا طَعَامٌ إِلا مِنْ غِسْلِينٍ ۞ لا يَأْكُلُهُ إِلا الْخَاطِئُونَ ﴾[٢].

"أى لا له طعام كما كان لا يحض فى الدنيا على طعام المسكين، إلاَّ طعام من غسلين وذلك ما يسيل من صديد أهل النار"[٣].

أما شراب أهل النار فهو من الصديد شديد المتانة فيشربه عن كره ولا يكاد يبتلعه من شدة نتانته وكثافته قال تعالى: ﴿ وَاسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ۞ مِّن وَرَآئِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِن مَّاء صَدِيدٍ ۞ يَتَجَرَّعُهُ وَلاَ يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَآئِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴾[٤].

يقول **الإمام البيضاوى:** "الصديد: هو ما يسيل من جلود أهل النار ﴿يَتَجَرَّعُهُ﴾ يتكلف جرعة ﴿ وَلاَ يَكَادُ يُسِيغُهُ ﴾ ولا يقارب أن يسيغه فكيف يسيغه بل يغص به فيطول عذابه، والسوغ جواز الشراب على الحلق بسهولة وقبول نفس"[٥].

وقد أخبر سبحانه عن ثياب أهل النار بما يبعث القشعريرة في البدن، والحسرة في النفس، والتعوذ الدائم بالله سبحانه من حال الأشقياء، يقول ﷻ ﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ﴾[٦]

" والقطران: هو شيء يتجلب من شجر يسمى الأبهل فيطبخ ويطلى به الغبل الجرب فيحرق الجرب بحرارته وحدته، وقد تصل حرارته إلى داخل الجوف، ومن شأنه أن يتسارع فيه اشتعال النار، وهو أسود اللون منتن الريح فتطلى به جلود أهل النار حتى يصير ذلك الطلى كالسرابيل، وهى القميص فيحمل بسببها أربعة أنواع من العذاب: لذع القطران وحرقته وإسراع

---

(١) معجزة القرآن الكريم للشيخ / محمد متولى الشعراوى صـ٤٠ ط ١٩٩٧م – ١٩٩٨م
(٢) سورة الحاقة الآيات ٣٣-٣٧
(٣) تفسير الطبرى ٢٢١/١٢ ، ٢٢٢
(٤) سورة إبراهيم الآيات ١٥-١٧
(٥) تفسير البيضاوى٥١٥/١ باختصار
(٦) سورة إبراهيم الآية ٥٠.

النار فى جلودهم، واللون الوحشى، ونتن الريح، وأيضاً التفاوت بين قطران القيامة وقطران الدنيا كالتفاوت بين النارين، وحظ العقل من هذا أن جوهر الروح جوهر مشرق لامع من عالم القدس وغيبة الجلال، وهذا البدن جار مجرى السربال والقميص له، وكل ما يحصل للنفس من الآلام والغموم، فإنما يحصل بسبب هذا البدن، فلهذا البدن لذع وحرقة فى جوهر النفس، لان الشهوة والحرص والغضب إنما تتسارع إلى جوهر الروح بسببه، وكونه للكثافة والكدوره والظلمة هو الذى يُخفى لمعان الروح وضوءه وهو سبب لحصول النتن والعفونة، فتشبه هذا الجسد بسرابيل من القطران والقطر"[1].

ويتحصل مما سبق: أن عاقبة الأشقياء فى الآخرة هى العاقبة السوآى فى نار جهنم وبئس المصير.

---

[1] تفسير الرازى ٣٧٤/٩ ، ٣٧٥ باختصار وتصرف